أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده

الإمام الهادي بن يحيى بن الحسين عليه السلام

الجزء الثاني

العروج

إلى سماء الأنوار الهادوية

مقدمة

رحلة طالت أيامها وتعددت ساعاتها.. فمنذ عامين وأنا أتنقل في روضات الحياة الهادوية .. ورغم تطاول الأيام وكثرة الانتقال أراني أخرج من تلك الرياض البعيدة أطرافها.. الكثيفة أشجارها .. الكثيرة أثمارها .. وأنا أعترف أني لم أستطع أن أحصيها عدداً فكيف أحيط بما فيها وصفاً وقصصاً.

إنك أيها القارئ العزيز بتصفح هذه الوريقات ستقف على عتبات حياة أمة بلغت من المجد والتضحية المنتهى .. فلم تستطع بجميع أفرادها حمله .. فلما أخفقت بحثت عن رجل يقوم بدور أُمّه.

فحمل الإمام الهادي يحيى بن الحسين -عليه السلام- لواءها فكان بحق أمة فكان كما قال عن نفسه:

(لإن أطعتموني لا يغيب من رسول الله إلا شخصه).

فقد حذا حذوه وبالغ في اقتفاء أثر جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورفع فوقه شعار «**إن هي إلا سيرة محمد أو النار**».

أقدم هذه السطور إلى القارئ الكريم .. لتمثل لوحة فنية حاولت أن أبرز فيها ما استطعت من جوانب العظمة في تلك الشخصية

أسأل الله أن أكون قد وفقت في ذلك

يحيى محمد محمد المؤيد

صعدة - ضحيان

٢٠ شوال / ١٤١٩هـ

الباب الأول

الفصل الأول

(١)

اشتدت وطأة الظلم وضاقت البلاد بأهلها .. وضاقت قلوب المؤمنين ذرعاً .. فقد تحولت المناطق اليمنية من دولة إسلامية تحكمها الشريعة الغراء إلى إقطاعيات يحكم فيها ملوكها بما شاءوا.. وبلغ الفساد ذروته.

وبينما أبو العتاهية في مجلسه في صنعاء دخل عليه

أحد جنوده.

الجندي: يا مولاي لقد دخل إبراهيم بن خلف بلد جيشان وأباحها لجنده .. وكأني بهم لم يتركوا فيها عذراء إلا واغتصبوها .. ولا غلاماً أمرداً إلا وافتعلوا به .. وقد حملوا النساء وباعوهن سبايا.

أبو العتاهيهـ وقد ضاقت به الأرض مما سمع: هذا فعل إبراهيم بن خلف ممن يُظهر لنا الولاء .. أمّا حسين بن جفتم وجنوده فقد صاروا ينهبون النساء والغلمان من الأسواق علناً للفجور بهم.

شيخ مسن: وآل طريف قد تقاسموا البلاد يأخذون أموال الناس بالباطل .. والله يا أمير اليمن لقد ذهب الإسلام وشح المؤمنون في هذه الديار.

أبو العتاهية: وما عساي أفعل ولا ظهير لي ولا معين؟ فكل الناس قد مالوا إلى الفساد!! والله لولا الخوف أن تزداد

الأمور سوءً لاعتزلت هذا الأمر من ساعتي هذه .

الشيخ: والله لو فعلت ذلك لتمادى هؤلاء الفساق في فسادهم فلولا الهيبة منك لرأيتهم يقتحمون العظائم.

أبو العتاهيه: وهل هناك فساد أشد مما هم فيه؟! هل ترى لنا من مخرج؟

الشيخ: ألم يحن الوقت لوصول العلوي إلينا لعل الله يصلح به أمر البلاد.

أبو العتاهيه: وهل تراهم يتركونه؟! ألا ترى كراهيتهم لـه؟ والله لا زلت أراسله في الخفاء تجنباً لكثرة معارضتهم.

الشيخ: أرى أن نلجأ إلى الحيلة في إدخاله.

أبو العتاهية: كيف ذلك؟

الشيخ: أرى أن نرسل إليه فيدخل البلاد المجاورة لصنعاء بلداً بلداً فإذا قرب من صنعاء أظهرت لبني عمك ولحسين بن

جفتم وجنوده أنك محارب له وأخرجت من تخاف خلافهم في كمين له وشددت عليهم ألا يخرجوا إلا إذا أرسلت إليهم .. وسرت بعامة الناس فإذا قابلته سلمت عليه وأدخلته إلى صنعاء. فإذا علموا لم يجدوا ما يفعلوه.

أبو العتاهية: نعم الرأي ما رأيت ولكن عسى أن لا يكون الهادي مشغولاً.

* * *

وبعد أيام دخل وزير أبي العتاهية الطاعن في السن .. وألقى السلام على الأمير فرآه واجماً .. فلما سمع أبو العتاهية صوت الوزير استبشر بقدومه واقترب الوزير الصالح من أبي العتاهية وجلس إلى جواره.

الوزير: عسى أن لا يكون هناك ما يشغل مولاي الأمير.

أبو العتاهية: لقد بلغني أن الهادي في حرب مع الأكيليين .. وإني أخاف أن يشغله ذلك عن إجابة طلبي والقدوم إلينا.

الوزير: يا مولاي .. إن للهادي عزيمة لا تنثني .. وإذا علم أن في قدومه إليك مصلحة للدين فلن يرده عن ذلك أعظم الأخطار والعوائق .. فمن فارق مسقط رأسه وهان عليه فراق أهله فقد صحت عزيمته.

أبو العتاهية ـ وهو يشير إلى أحد غلمانه: عليّ بشربة ماء بارد يا غلام.

الوزير: لو حرمت يا مولاي هذه الشربة بكم تشتريها؟

أبو العتاهية: بنصف ملكي.

الوزير: ولو حرمت الأكل بكم تفتديه به؟

أبو العتاهية: بالنصف الآخر..

الوزير: ما أحقر ملكاً لا يساوي إلا شربة ماء ولقمة عيش.

وهنا تغير وجه أبي العتاهية .. وسالت دموعه .. وأخذته الرعشة .. وجعل يقلب نظره في ديوانه ليرى فيه أفخر الفرش

وأجمل النقوش والثياب والغلمان في كل زاوية .. كانت فخامة الملك ورغد العيش تحوطه من كل جانب .. فنطق بعد صمت حاسب فيه نفسه أشد الحساب وتوجه إلى الوزير يسأله:

- ماذا تقصد أيها الوزير؟

الوزير: أرى أن تطلب لنفسك ولدينك النجاة .. وتبادر في طلب العلوي لعله ينقذ البلاد من الفساد.

أبو العتاهية: الرأي ما رأيت أيها الوزير الصالح.

(٢)

كان الإمام الهادي (ع) قد عاد إلى صعدة فدخلها في جماد الآخر سنة ٢٨٧هـ فاستقبلته بنو سعد في عسكر عظيم .. وبقي فيها زمناً يصلح أمور الناس.

ولكن رؤوس الفـتنة أبَوا أن يستقر لهذه البلاد قرار .. لأن

في استقرارها -كما يظنون- قطع معاشهم وذهاب سلطانهم وإصغار الناس لهم .. ولذلك كانوا يُؤجِّجون نار الفتنة في كل بلد.

فقد استمر ابن عباد الأكيلي في تنفير الناس عن الإمام الهادي (ع) ودفع الناس إلى الخروج عليه بعد أن جمع من سفهاء الناس من إستجاب لـه من أهل المصالح .. وعقد لهم مجلساً .. وجعل ينفذ سمومه إلى صدورهم.

ابن عباد: هاهو الهادي قد أخضع بني الحارث ودانت له نجران بالولاء والسمع الطاعة .. وكأني به قد عاد إلى صعدة ليعشر أموالكم ويأخذ زكاتكم .. أمثل هذا العلوي يأخذ من أموالنا ما شاء؟ والله لقد ذهبت منا الحمية.

أحدهم: يا ابن عباد كف عن هذا فليس فينا من يستطيع أن يقاوم الهادي فإن الناس قد اجتمعوا على محبته واتباعه.

ابن عباد: ولكن القبائل لو اجتمعت على حرب الهادي

لاستطاعت .. ولعاد من حيث أتى.

وتكلم رجل آخر في انفعال.. فقال:

- ومن أين لك يا هذا باجتماع القبائل على حربه .. وقد بايعه الجميع .. وله في كل بيت محبة وولاء؟!

ابن عباد: أنا أدلكم على الطريقة التي تجعل كل القبائل تجتمع على حرب الهادي.

أحدهم: كيف ذلك يا ابن عباد؟!!

ابن عباد: يا قوم إنا إذا جمعنا من كل قبيلة من له هوى في الإفساد على الهادي ثم أفسدنا عليه فطلبنا الهادي التجأنا إلى قبائلنا .. وطلبنا منهم الحماية .. ولا أظن الهادي يتهاون في طلبنا .. فعندما تأبى القُبُل تسليمنا حاربها.. عند ذلك تكون قد هيّجنا قلوب الناس عليه وتحقق لنا ما نريد.

آخر: ولكن كل قبيلة ستأبى علينا الإفساد في بلادها بعد بيعة

الهادي ومعاهدتهم له.

ابن عباد: هذه بلادي فيها نجتمع .. وفيها نتحصن ونحارب.

* * *

وبالفعل اجتمع في بلاد الأكيليين قوم من المهاذر، والعوبرات، والبحرين، وطرف من بني جماعة .. وأظهروا الفساد .. ومنعوا الزكاة .. وجعلوا يحرضون الناس على إثارة الفتنة ..

وعلم الإمام الهادي (ع) بالأمر فأرسل من عرف له أخبارهم وعلم أنهم لفيف من سائر القبائل .. فأرسل من جمع له بني سعد من قبائل خولان .. وخرج في جيش كثيف .. فكره أن يقاتلهم على اختلاف بلدانهم وأهلهم .. وأدرك أن في ذلك فتح لباب الفتنة لما يعلم من قلة دين الناس وعدم معرفتهم للحق .. وأن الحمية تغلب الدين .. فأقبل على أعناب الأكيليين والمهاذر.. فأمر أن تقطع أعناب الأكيليين وتترك أعناب المهاذر.

أحد جنود الهادي: يا مولاي إن بعض أهل المهاذر في جيش ابن عباد!

الإمام الهادي: ولكنهم لم يفتحوا بلادهم للمفسدين من الأكيليين .. ولم يوالهم إلا بعض سفهاء أهل المهاذر .. فلا نأخذ من أذنب بذنب من لم يذنب.

وعاد الإمام الهادي (ع) ولم يحارب القوم رجاء أن يعرفوا الحق .. ويتركوا الفتنة.

وأدرك ابن عباد السر فيما فعله الإمام الهادي (ع) .. وأنه لم يتقدم لقتالهم .. ولم يقطع سوى أعنابه .. فاشتد غيظه .. فقد أمّل أن يقاتل الإمام الهادي (ع) بمن جمع له من القبائل .. فلا تبقى قبيلة إلا وللهادي فيها ثأر .. فيكون في ذلك اجتماعهم على حرب الإمام الهادي (ع) .. فلما لم ينل مراده أرسل في القبائل من يقول لهم:والله إن ما نزل بنا اليوم من الهادي

نازل بكم..

وجعل ابن عباد يستثير مشاعر الناس .. ويظهر التظلم مما فعله الإمام الهادي (ع) بقطع أعنابه.

فأجابه جمع من القبائل واجتمعوا إلى حصنه .. وأظهر أهل المهاذر نصرتهم لابن عباد .. وفتحوا بلادهم للإكيليين .. وكثرت جموعهم .. وأملوا في الإفساد في البلاد.

وأتتهم الأخبار أن الإمام الهادي (ع) قد أرسل الصُّرّاخ في شعب حي وقبائل خولان .. وأنه عازم على حرب ابن عباد .. فجعل ابن عباد يعد العدة..

وفي مساء ليلة العشرين من رجب كانت سرية من جنود المهاذر تتمركز في أحد المواقع المهمة في وادي علاف .. ومع شروق شمس ذلك اليوم كانت طلائع الجيش الهادوي تتدفق على وادي علاف.

كان ابن عباد قد أعد العدة لهذا اليوم فقد نصب الكمائن والرماة في كل موقع .. ولذلك أمطر الجيش الهادوي

بوابل من السهام.

فلما رأى الإمام الهادي (ع) شدة البلاء النازل بأصحابه أشار عليهم بمداهمة القوم وقتالهم .. فلما رأى ترددهم تقدمهم ليكون أقرب جيشه إلى الأعداء .. ودارت رحى المعركة وكادت المعركة أن تنتهي لتحدد من تكون له الغلبة .. ولكن سيل السهام المتدفق لم يتوقف.. حتى أصبح أصحاب الإمام الهادي (ع) أشبه بالقنافذ .. والتفت الإمام الهادي (ع) إلى مصدرها .. فإذا ابن عباد قد أمر خير رماته أن يصعدوا في ربوة تعلو ساحة المعركة ويرموا جيش الإمام الهادي من هناك.

رمق الإمام الهادي (ع) جمعاً من خواصه بنظرة فهموا منها ما يريد .. فتوجه إليه محمد بن سعيد بن أبي سورة، وعلي بن محمد، ويحيى بن محامل، وفي حركة خاطفة لم يستوعبها ابن

عباد كان الإمام الهادي (ع) يتوجه بكل ما أوتي من قوة واندفاع نحو تلك الربوة.

وأُوترت عشرات الأقواس ليوقفوا ذلك الأسد مع أشباله .. وانطلقت السهام وأدركت هدفها .. واغترست في الأجساد الشريفة .. وتلى السهم عشرات من الأسهم..

* * *

والتحق بالإمام الهادي(ع) ثلاثة آخرون فبلغ عددهم سبعة .. ولكن مائة وخمسين من الرماة كانوا لا يفترون عن الرماية .. وقربت الشمس من المغيب وتوقف من في الوادي ليرقبوا المشهد .. وتلقى جسم الإمام الهادي (ع) ثلاثة من السهام .. وتبعها عدد آخر .. ووصل الفارس الهمام مع أشباله إلى مكان القوم ليخالطوهم واستقر سهم آخر في الجسد الشريف؛ وكأن عاصفة حلت بالرماة .. فقد تفرقوا يميناً وشمالاً .. كلٌ يَحْذَر سيف الإمام الهادي (ع)..

وغابت الشمس ليحل الظلام ويتفرق الناس .. وعاد الإمام الهادي (ع) إلى داره في صعدة؛ لتعالج جروحه ..

وجعل يقول:

صعب الزمان عليّ فاستصعبت ... صعب الزمان وليس مثلي يخضع

للدهر، لو خضع الزمان ... إن الكريم مصمم لا يجزع

إني لهذا الدهر قرن قاهر ... لا أستقيد له ولا أتضعضع

رام الزمان تضعضعي فمنعته ... ذاك المرام وخاذلي يتواضع

صبر الزمان علي إذ صابرته ... حتى بدت فيه الملامة تسطع

والصبر مني ثابت متجلد ... ما إن خشعت وما لمثلي يخشع

والله ربي، والنبيِّ، فوالدي[1] ... والله يحفظني وعني يدفع

حسبي الإله ونيتي وبصيرتي ... والرمح فيه شبه نار تلمع

(٣)

علم الإمام الهادي (ع) بما فعله أهل المهاذر من مناصرتهم

رحمه الله غفر الله له غفر الله لهما يقصد عليه السلام امير المؤمنين علي رضي الله عنه عليه رحمة الله

لابن عباد فنادى على محمد بن القاسم العلوي وعلي بن محمد -وكانا في جانب من المجلس- فتقدما بين يديه ..

الإمام الهادي: أخرجا إلى أفقين فقد بلغني أن بعض دواب أهل المهاذر ممن دخلوا في هذه الفتنة هناك .. فخذوها لعلهم يرهبون .. فيكفون عن إثارة الفتن .. فإني أكره أن أقتل منهم أحداً.

ولم تمض أيام حتى كان محمد بن القاسم وعلي بن محمد مقبلين بسريتهم وقد جمعوا بعض مواشي أهل المهاذر.. فقسم الإمام الهادي (ع) الغنيمة بين السرية .. وأبقى خمساً منها في جانب.

أحد أصحابه: يا مولاي هذا خُمُس ذوي القربى والإمام .. فلماذا لا تقسمه في أهلك .. وهم أشد الناس حاجة؟!

الإمام الهادي: يغنيهم الله من غيره .. إن له أهلاً يقبلون لأخذه قريباً إن شاء الله.

ومرت الأيام والإمام الهادي (ع) يرجو رجوع أهل المهاذر عن فعلهم .. وفي صبيحة اليوم الأخير من شعبان تحقق مراده فقد أقبل أهل المهاذر نادمين معتذرين عما بدر منهم .. فرد الإمام الهادي (ع) عليهم خمسهم.

وقبل أن ينصرف القوم ويعود الإمام إلى داره أقبل أحد جنوده.

الجندي: يا مولاي إن محمد بن القاسم من ولد العباس ضربني بسوطه يوم خرجنا إلى المهاذر .. وإني أطلب منك إنصافي منه.

فبادر الإمام الهادي (ع) إلى دعوة محمد بن القاسم فمثل بين يديه .. فأوقفه إلى جوار خصمه .. فكرر الجندي دعواه.

محمد بن القاسم: يا مولاي لقد أراد هذا سرقة الغنم .. وركب الراحلة وأراد الهروب .. فأسرعت إليه فأخذتها منه .. وضربته بالسوط.

الإمام الهادي: هلا كنت أخذتها وكففت سوطك عنه؟ أعطه سوطك ليقتص لنفسه.

وفي امتثال المعترف الخاضع لحكم الله تقدم محمد بن القاسم إلى الرجل وسلمه السوط ووقف ينتظر القصاص.. فذهل الرجل ومن في المجلس لما رأوا من العدل -فلا القرابة ولا المنصب يمكن أن تثني الإمام الهادي عن تنفيذ حكم الله- فما كان من الرجل إلا أن إلتفت إلى محمد بن القاسم وقال له: -لقد عفوت عنك يا أخي خذ سوطك.

* * *

وفي تلك اللحظات كان رسول أبي العتاهية يقف بين يدي الإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام .. ويسلم إليه رسالة أبي العتاهية.. فتصفح الإمام الهادي (ع).الرسالة وعرف مضمونها.. وبعد أن إنتهى من قراءتها هز رأسه وطواها.. وانفض المجلس.. وعاد إلى داره.

وفي اليوم الثاني من شهر رمضان أمر الإمام الهادي بجمع

الناس من أصحابه وتوجه بهم إلى وادي علاف لمناجزة الأكيليين .. ثم نادى على أحد رجاله يسمى أبو تراب محمد بن العباس العلوي .. وأمره أن يخرج مع سرية من الجيش فيكونوا بأعلى وادي علاف.

ومع طلوع الفجر الأول كان الإمام الهادي (ع) يرتل آيات الله في محرابه ويوقظ الناس لصلاتهم .. ثم بدأ الجيش بالتحرك تخفق فوقه الرايات .. ويعلوهم صوت التكبير والتهليل.

ومع بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس كان أول جندي يقف في مدخل وادي علاف .. وتوقف الجيش وتقدم الإمام الهادي (ع) .. ليستقر نظره على حشود الأكيليين ومن معهم .. قد جعلوا ظهورهم إلى جبل وعر .. وجعلوا الرماة في أعلاه في أهبة واستعداد كامل لخوض المعركة.

أدرك الإمام الهادي (ع) أن القوم مُصِرُّون على القتال .. فعاد إلى أصحابه وأحسن تعبئتهم.. ونظمهم إلى ميمنة

وميسرة وقلب.

وبينما الإمام الهادي (ع) على مثل ذلك الحال أقبل عليه رجل من أصحابه يسمى محمد بن مصبح اليرسمي فقال:

- يا بن رسول الله إنك تحمل أصحابك على الهلكة .. فعدوُّهم مستظهر عليهم .. وأنا أخاف أن ينالوا منا فانظر في أمرهم ولا تحملهم على مكروه.

كان محمد بن الهادي يرى أن القوم في مكان لا تستطيع فيه الخيل من التحرك.. فإن تقدم المشاة من جيش الإمام الهادي(ع) أهلكهم الرماة قبل أن يصلوا إلى الأكيليين.. فسرَّ محمد إلى أبيه بهذا الأمر.

فأجابه الإمام الهادي في قوة الرجل الواثق بنصر الله قائلاً:

- اصبر فسنسرك بعد قليل إن شاء الله تعالى.

انصرف محمد وهو يقول: والله ليفضحن أصحاب الإمام.. وليُقتلُن ولينال عدوهم منهم .. فإنا لله وإنا إليه

راجعون.

وما هي إلا لحظات حتى صاح الإمام الهادي في عسكره: - أين الطبريون؟

فأجابوه بصوت واحد: نحن هؤلاء يا بن رسول الله.

فقال لهم الإمام الهادي: هَبُوا لي أنفسكم ساعة.

فقالوا: نفعل يا بن رسول الله.

وهنا أمر الإمام الهادي (ع) أهل همدان أن يصعدوا من جانب الجبل ويتوجهوا إلى الرماة .. ولا ينظروا إلى المشاة الذين اجتمعوا في سفح الجبل.

فلم يشعر الرماة إلا بقبائل همدان قد اقتربت منهم فوجهوا أقواسهم ليدفعوا عن أنفسهم.

وصاحوا بالمشاة الذين في سفح الجبل .. فأراد المشاة التحرك للإحاطة بالهمدانيين .. ولكنهم ذهلوا عن ذلك بان

الإمام الهادي (ع) أصدر أوامره إلى الطبرية ومن معهم من خولان بالزحف إلى من في سفح الجبل .. ثم أمر الرماة أن يوجهوا سهامهم إلى من في الجبل ليشغلوهم عن رمي الهمدانيين حتى يخالطوهم.

وهنا فَشِل الأكيليون واضطرب أمرهم .. واختلفوا فيما بينهم .. وأنزل الإمام الهادي (ع) وجنوده بهم شر هزيمة.

جعل الأكيليون يبحثون عن ابن عباد فلم يجدوه .. فتفرقوا في الوديان يرجون النجاة لأنفسهم.

وتقدم أبو تراب محمد بن العباس العلوي بسريته من أعلى الوادي .. وأمر الإمام الهادي (ع) أصحابه بتتبع أهل الفساد..

وتوقف المنهزمون على باب دار ابن عباد .. فخرج إليهم وكأن الأمر لا يعنيه.

فقال له أحدهم: يا أبا الحسن كنت توعدنا أنك تفعل

وتفعل .. فلما حاربنا تركتنا وجلست مع النساء!!

واختلف القوم وتفرقوا من عنده مغضبين منه ساخطين عليه .. فجمع أهله وولى هارباً مخافة أن يدركه الإمام الهادي.

وتقدم الإمام الهادي عليه السلام بجيشه وقد صاروا كالقنافذ لكثرة ما علق بهم من السهام -حيث كان ابن عباد قد أقنع بني كليب بالقتال معه .. وكانوا ذوي خبرة في الرماية وفنون الحرب- فأمر الإمام الهادي (ع) بأعناب ابن عباد وأصحابه فقلعت..

وبينما الإمام الهادي (ع) يتقدم نحوهم أقبل جمع من بني كليب والأكيليين وهم ينادون على الإمام الهادي (ع):

- الله الله يا بن رسول الله .. نحن سامعون مطيعون.

الإمام الهادي: إن كنتم على ما ذكرتم فانزلوا إلينا فلكم الأمان.

واختلط الناس .. وأنزل الله سكينته عليهم ونزع الأحقاد من قلوبهم.

كان الإمام الهادي (ع) قد أصيب بأكثر من عشرين سهماً .. ولكن الإمام الهادي (ع) ما كان يوماً ليطلب لنفسه ثأراً .. ولا ليترك في قلبه على أحد ضغينة .. فقد وهب نفسه لنصرة دين الله وفاءً للعقد الذي بينه وبين خالقه ومالك أمره القائل جل وعلا: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ}.

* * *

وأقبل بعض مشائخ الأكيليين يطلبون الأمان لابن عباد.

الإمام الهادي: إن الرجل ليس من أهل الصلاح .. وإني إن أمنته أفسد الناس من جديد .. وأيقظ الفتن.

ولما أتى الخبر ابن عباد وعلم أن الإمام الهادي رفض أن

يعطيه الأمان خرج مع بعض خاصته وجعل يحدثهم قائلاً:

- والله لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً .. وإني خارج إلى الخليفة العباسي في العراق ليرسلني على رأس جيش لا قبل لهذا العلوي به.

وخرج ابن عباد متخفياً حتى بلغ تهامة .. ثم توجه نحو العراق.

كان أحمد بن عباد الأكيلي قد آل على نفسه أن يخرج الهادي من اليمن .. فلم ير من طريق إلى ذلك -بعد أن خذله أهل بلاده ولم يوافقوا هواه- إلا أن يخرج لطلب النجدة من الخليفة العباسي في العراق.

فلما بلغ العراق جعل يتردد على دار الخلافة ليسمح له بمقابلة الخليفة المكتفي .. ولكن هيهات أن يجد إلى ذلك طريقاً .. فالخدم والحجاب وأُبَّهة المُلك كانت تقف حائلاً بينه وبين الوصول إلى الخليفة.

ومضى الشهر الأول لوصوله .. ثم تلاه الشهر الثاني والثالث وبعد جهد جهيد وذلة ومهانة تمكن من مقابلة الخليفة.

ابن عباد: يا أمير المؤمنين أن رجلاً من العلوية قد ملك بلاد اليمن .. وأفسد العباد .. ونصب نفسه أميراً للمؤمنين .. فأرسل معي من يطهر البلاد من شره ويذلل اليمن لأمرك.

الخليفة: خيراً يا ابن عباد .. ننظر في أمر هذا العلوي فانتظر حتى نرسل إليك.

ومرت أيام طويلة .. وابن عباد ينتظر طلب الخليفة العباسي. وتلتها الأشهر وابن عباد في العراق لا يؤبه لـه .. ولا يتجاوب مع طلبه.

الفصل الثاني

(١)

استقر الإمام في بلاد صعدة بقية شهر رمضان يراسل ولاته على البلاد .. ويصلح ما أفسده ابن عباد من قلوب الناس .. وينشر السلام والخير في البلاد .. ويستقبل الوافدين عليه من أقصى البلاد الإسلامية لما اشتهر به من العلم والفضل والإحسان.

وكانت رسل أبي العتاهية لا تنقطع عن الإمام الهادي (ع) يحثه على الخروج إلى صنعاء لإصلاح البلاد.

وفي شهر المحرم سنة ٢٨٨هـ أرسل الإمام الهادي (ع) إلى ولاته يأمرهم بحشد الجنود وإرسالهم إليه .. فلما اجتمع له من الجند جيشاً كثيفاً من همدان وخولان أعلن في الناس أن

أبا العتاهية قد أسلم إليه ما كان في يد الدعام بن إبراهيم .. وأنه عازم على الخروج لإصلاح أمر البلاد.

وتقدم الإمام الهادي (ع) على رأس جيشه فنزل خيوان ثم توجه إلى ريدة .. ثم انتقل إلى مدر وجعل يتقدم حتى بلغ موضع يقال له حدقان .. كل هذا والناس يستقبلونه أحسن استقبال طامعين في عدله الذي بلغ صيته البلدان.

* * *

استشعر بنو طريف وحسين بن جفتم وإبراهيم بن خلف ذلك الخطر القادم .. فهبوا من أقاصي البلاد إلى أبي العتاهية في صنعاء ..

وفي مجلس الأمير أبي العتاهية اجتمع آل طريف وآل يعفر وإبراهيم بن خلف ..

أبو العتاهية: يا سبحان الله .. ما الذي جمعكم يا قوم على تنافركم واختلافكم وبهذه السرعة.

رجل من آل طريف: كأنك يا أبا العتاهية لا تشعر بما يدور في البلاد.

أبو العتاهية: بلى؛ أعلم أن الفساد قد دخل بأيديكم إلى كل دار .. ولكم دعوتكم للاجتماع وترك الفساد ولكنكم لا تأتمرون بأمري ولا تستمعون لنصحي.

إبراهيم بن خلف: دعك من هذا الكلام يا أمير اليمن .. إن ما جمعنا هو أمر هذا العلوي الذي صار أقرب شيء إلى عاصمة ملكك.

أبو العتاهية: وما عساي أن أفعل .. وليس فيكم من يأتمر بأمري أو ينزل على طاعتي!!

وهنا صاح الجميع بصوت واحد: نحن ننزل على طاعتك .. ونأتمر بأمرك..

وتحقق لأبي العتاهية ما أراده..

أبو العتاهية: إذاً فاسمعوا ما أقول لكم .. أريد حسين بن جفتم وجنوده وبني طريف أن يجمعوا خاصتهم ويخرجوا في هذه الليلة ليكونوا كميناً في وادي السر .. ولكن حذارِ أن يخرج أحدٌ منكم من مكانه إلا إذا طلبته.

- سمعاً وطاعة .. وأنت ماذا ستفعل؟.

أبو العتاهية: أخرج أنا وجمع من العساكر في وجه الرجل وجيشه .. فإذا نشب القتال أرسلت من يطلبكم فتهجمون من خلف معسكره.

إبراهيم بن خلف: الرأي ما رأيت.

وتفرق القوم إلى أماكنهم .. وجمع الجنود لأبي العتاهية.

ومع شروق الشمس كان أبو العتاهية يخرج من صنعاء على رأس جيشه .. وقد بلغ جنوده في ذلك اليوم عشرة آلاف.

ولما بلغ الإمام الهادي (ع) خروج أبي العتاهية من صنعاء بجحافله عبأ عسكره .. وكانوا ستمائة راجل .. ومائة

وخمسين فارساً .. وجعل الطبريين بين يديه..

وتأهب الجميع لخوض المعركة .. فأقبل يزيد بن علي الشاكري نحو الإمام الهادي حتى وقف بين يديه.

يزيد بن على: يا ابن رسول الله إنا نراك قد عزمت على حرب هذا الرجل .. وليس معك عسكر .. وقد ذكر لنا أن مع هذا الرجل جيش عظيم. ..!

الإمام الهادي: أبشروا فإنه سيلقاني .. فإن سلم إليّ هذا الأمر وإلا ضربت عنقه وأنتم داخلون غداً صنعاء ـإن شاء الله تعالىـ ومصلون فيها الجمعة بحول الله وقوته.

أراد الإمام الهادي بذلك أن يعتم الأخبار عن الناس مخافة أن ينقل الخبر لآل طريف ومن معهم.

* * *

وحين تراءى الجمعان .. وتأهب الجيشان للقتال .. وبلغت القلوب الحناجر.. وتصاف الجيشان .. وأقبلت رسل أبي العتاهية إلى الإمام الهادي (ع) تقول له:

إن الأمير يطلب إليك أن تخرج إليه في عشرة رجال .. فإنه يريد أن يكلمك.

وخرج الإمام الهادي (ع) في ثلاثين فارساً تخفق فوق رأسه الراية .. يحملها على بن محمد بن عبيد الله .. وخرج أبو العتاهية في عشرة من خُلَّص أصحابه ..

أمر الإمام أصحابه بالتوقف.. وأمر أبو العتاهية أصحابه بالتوقف.. وبرز كل منهم إلى صاحبه..

كان الشوق يحمل أبا العتاهية للتقدم نحو الإمام بخطى سريعة.. فلما كانوا على مقربة من بعضهم رمى أبو العتاهية برمحه جانباً وكشف عن رأسه .. ثم نزل عن فرسه .. وأقبل نحو الإمام.

فترجل الإمام عن فرسه .. وأقبل نحو أبي العتاهية .. وكُتب للمُتحابين في الله أن يلتقيا ويتصافحا.

* * *

كان كلا الجيشين يترقبون مشهداً من نوع آخر .. كانوا

ينتظرون معركة فريدة تتعانق فيها الرماح وضربات السيوف .. ويعلو فيها الغبار ويشتد فيها العراك .. ولكنه الإيمان إذا حل قلوباً أحال الشر إلى خير والعداوة إلى محبة.

وفي مشهد فريد جلس أبو العتاهية بين يدي الإمام يعظه الإمام ويذكره.

أبو العتاهية: استحلفني يا أمير المؤمنين.

الإمام الهادي: أستحلفك بالله على القيام معي على الحق وبالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ووضع أبو العتاهية يده في يد الإمام ليبايعه وحلف بما استحلفه الإمام.

وتقدم الوزير الصالح محمد بن أبي عباد -وزير أبي العتاهية- فبايع الإمام.

ثم جعل أبو العتاهية يقبل بجيشه جماعة جماعة لمبايعة الإمام الهادي (ع).

ثم اختلط الجيشان .. وتعانق الناس .. وتصافحوا ثم صلوا صلاة الظهر وصلاة العصر .. وقبيل المغرب أقبل أبو العتاهية على الإمام الهادي (ع).

أبو العتاهية: فلندخل على بركة الله إلى صنعاء.

الإمام الهادي: ألا نبيت هذه الليلة هنا؟

أبو العتاهية: الرأي ما رأيت يا مولاي .. غير إني لا أحب مبيتك هاهنا لما أحاذره من بني عمي على صنعاء.

ووافقه الإمام على رأيه .. وتقدم الإمام الهادي (ع) إلى صنعاء ليلة الجمعة[1].. و أبو العتاهية يسير بين يديه إلى أن أدخله إلى داره.

(٢)

لم يكن إبراهيم بن خلف ليجرؤ على معارضة أبي العتاهية لِبُعْد أنصاره وضعف جانبه .. فلما دخل إلى صنعاء أرسل إلى

---

١ غمر الله له غمر الله لها في من المحرم سنة هـ رضي الله عنه

من كان في كمين وادي السر من آل طريف وآل يعفر فلما أقبل الرسول عليهم قال له عبد الله بن جراح اليعفري:

- من أين أقبلت؟ ومن أرسلك؟!

الرسول: أنا رسول إبراهيم بن خلف إليكم.

عبد الله بن جراح: ما لنا وما لإبراهيم بن خلف .. دعنا من ذكر هذا الرجل .. وأخبرنا بما فعل أبو العتاهية مع هذا العلوي.

آخر: لا شك أن أبا العتاهية مزق شمله وفرق جمعه .. ولم يحتج إلينا فنسي أن له كميناً في السر.

الرسول: يا قوم إن إبراهيم بن خلف يقول لكم أفيقوا من غفلتكم فقد خُدعتم .. فأبو العتاهية قد بايع الهادي وأسلم إليه أمر البلاد .. وأمر الناس بالبيعة له.

ضج آل طريف وآل يعفر وقاموا عن شرابهم ولهوهم .. وتقلدوا سيوفهم .. وهم يتوعدون أبا العتاهية ويقسمون أن

يخرجوه هو والإمام الهادي من صنعاء .. فراسلوا كل من يعرفون منه الولاء لهم ودعوه إلى أن يلقاهم على أبواب صنعاء...

وتوسطت الشمس في كبد السماء .. وتأهب الإمام الهادي (ع) ليرتقي المنبر ليخطب خطبة الجمعة.. وفي هذه اللحظات ازدحمت جنود بني طريف وإبراهيم بن خلف على أبواب صنعاء .. ووصلوا إلى أحمال الإمام الهادي (ع) ينتهبونها.

وتوقف أحد غلمان الإمام الهادي (ع) على باب المسجد يشير للهادي وهو على منبره بما حدث.. فصرف الإمام الهادي(ع) وجهه عنه .. وأكمل خطبة الجمعة ثم نزل فصلى بالناس.

وإذا بغلام لأبي العتاهية يقترب منه ويسر في أذنه بعض الكلام .. فهب من مكانه وركب على فرسه وخرج إلى المكان الذي تجمع فيه القوم في الجبانة .. فإذا بهم قد تأهبوا للحرب.

فلما وقف أبو العتاهية أمامهم أطلقو ألسنتهم بالسباب

والشتائم.. ونالوا منه أعظم النيل .. وهو يصيح فيهم ويترجى منهم أن يستمعوا إلى كلامه.. فلما سكتوا تكلم أبو العتاهية فقال:

- يا معشر العساكر قد تعلمون صنائعي إليكم .. وما كنت أوجبه لكم .. وأنا أميركم الذي تعرفون أعطيكم أكثر مما كنت أعطيكم وأزيدكم في أرزاقكم..

وأطال لهم أبو العتاهية الكلام بأحسن العبارة وألينها .. فتصايح القوم من كل جانب:

- لا نريد العلوي .. أخرجه من أرضنا.

أبو العتاهية: يا قوم أناشدكم الله إلا ما سمعتم وأطعتم لهذا العلوي .. فقد علمتم فضله وبلغكم عدله .. وإنه لكم خير مني يعلمكم معالم دينكم ويرشدكم إلى خير دنياكم وآخرتكم.

فرفعوا أصواتهم بالرفض والسباب واستعدوا للقتال وأبو

العتاهية لايكف عن نصحهم.

وخرج الإمام الهادي (ع) من المسجد فرأى الناس في اضطراب.

فأمر أصحابه بالصف على باب داره وجهزهم ثم صعد إلى شرفة تطل على الساحة ينظر إلى أبي العتاهية وهو ينصح القوم فأقبل عليه أبو العتاهية قائلاً:

- لا تعجل عليّ يا ين رسول الله .. فإني أرجو أن تؤول الأمور إلى محبتك.

فقال لـه الإمام الهادي (ع) -وقد صار بعضهم يرمي بالسهام إلى المكان الذي يطل عليهم منه:

- أنفد إليهم فاصرفهم من موضعهم .. فوالله محمود لئن برزت إليهم لأنظمنهم في رمحي كما ينظم الجراد في العود.

وطال الحوار .. وبذل لهم أبو العتاهية كل ما أمكنه من حسن العبارة ولين الجانب ووعدهم الأموال. .. فأجابوه بوابل من السهام ورموه بالحجارة .. ثم زحفوا نحو الطبرية

في مقدمة جيش الإمام الهادي (ع) وهنا أسرع أبو العتاهية إلى مكان الإمام الهادي (ع) الذي صار هدفاً لرماة القوم.

أبو العتاهية: إركب جعلت فداك وأمر أصحابك بالركوب .. فإن القوم قد غشوك.

وهنا ركب الإمام الهادي (ع) وأمر ولده بالركوب وجميع من معه.

وحمل الإمام الهادي (ع) على القوم فطعن الأول ثم أردفه بالثاني ثم الثالث فنظمهم في رمحه. .. فانهزم القوم شر هزيمة .. وخرجوا من صنعاء .. وخرج الإمام الهادي (ع) في آثرهم.

فلما رأى أبو العتاهية جِدَّ الإمام الهادي (ع) في قتالهم ناداه ورجاه أن يرجع عن مطاردتهم .. فرجع.

(٣)

اجتمع آل طريف وبعض آل يعفر ومعهم حسين بن جفتم وإبراهيم بن خلف.. وأخذوا يتشاورون في الأمر

إبراهيم: يا قوم لا طاقة لنا بهذا الرجل .. فدعونا من حربه وسالموه .. فإذا سنحت لنا الفرصة خذّلنا الناس عنه وثرنا عليه وأخرجناه.

عبد الله بن جراح: ما هذا القول يا ابن خلف ومعك عشرة آلاف جندي غير جنود جفتم لمن تتركهم؟

حسين بن جفتم: نواعدهم ونمنيهم .. وبقربنا منه نعرف مواقع ضعفه.

ونادى جفتم على بعض الوجهاء ... وأمرهم بالتوجه إلى الإمام الهادي (ع) لطلب الأمان منه ومن أبي العتاهية.

واستقبل أبو العتاهية رسلهم ..

أبو العتاهية ـوقد أقبل على الإمام الهادي (ع): يا ابن رسول الله هؤلاء رسل القوم يطلبون الأمان فماذا أفعل؟

الإمام الهادي: افعل ما شئت يا أبا العتاهية.

أبو العتاهيةـ وهو يلتفت إلى الرسل: أخبروهم أن يصيروا إلى

منازلهم في أمان.

ودخل الجميع إلى صنعاء.. وما هي إلا ساعات حتى انتشرت الأخبار بما أضمر بنو طريف ومن معهم من الخيانة واجتمعوا يريدون الإفساد.

علم أبو العتاهية بخبر القوم والمؤامرة التي يحيكونها فدخل على الإمام الهادي (ع).

أبو العتاهية: يا ابن رسول الله إن هؤلاء رجال فتنة .. ولن تهدأ البلاد إلا إذا حجبوا عن الناس .. أفأدعوهم إليّ ثم أسجنهم في أماكن متفرقة وأحسن إليهم.

الإمام الهادي: إفعل ما رأيت يا أبا العتاهية.

وأرسل أبو العتاهية في طلب القوم ليحضروا إلى داره.

فلما دخلوا أحسن إليهم أبو العتاهية .. وأمر جنوده فجردوهم من سلاحهم .. وأرسل بعضهم إلى وادي ضهر.. وأرسل آخرين إلى شبام .. وأبقى بعضهم في صنعاء .. وأمر أن يحسن إليهم.

وبعد ذلك رحل الإمام إلى شبام .. ثم رحل عنها وترك فيها ولده مع بعض جيشه .. ثم عاد إلى صنعاء وولى عليها أخاه عبد الله بن الحسين .. ثم دعا أبا العتاهية ليوليه أمر البلاد.

الإمام الهادي: يا أبا العتاهية ها هي البلاد قد سكنت فيها الفتن واستقر أمرها فتولّ أمر البلاد فإني خارج إلى ما دونها لآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر.

أبو العتاهية: لست أريد ذلك يا أمير المؤمنين .. ولكن أكون خادماً مطيعاً بين يديك.

الفصل الثالث

(١)

ترك الإمام الهادي (ع) مدينة صنعا بعد أن أسند ولاية صنعاء إلى علي بن سليمان وتوجه نحو ذمار واصطحب معه أبا العتاهية .. فلما بلغ سِمْح اجتمع إليه أهل البلاد فوعظهم .. فلما كان في بعض كلامه نادته امرأة: يا أمير المؤمنين أنصفني من أبي العتاهية.

الإمام الهادي: أين أبو العتاهية؟

أبو العتاهية: ها أنا ذا يا أمير المؤمنين.

ولما مثل أبو العتاهية بين يديه التفت الإمام الهادي (ع) إلى المرأة وقال لها: ها هو ذا أبو العتاهية يا امرأة فما الذي تدعين عليه؟

المرأة: لي في يده ضيعة غصبها أبوه مني.

أبو العتاهية: أُوجب عليَّ وعليها ما يجب يا أمير المؤمنين.

الإمام الهادي: إذا كان لكِ شهود فأحضريهم.

فأحضرت المرأة شهودها .. فشهدوا لها بذلك.

الإمام الهادي: سلِّم إليها ضيعتها يا أبا العتاهية.

وامتثل أبو العتاهية لحكم الإمام راضية بذلك نفسه .. وسلّم إليها ضيعتها ..

* * *

تقدم الإمام الهادي (ع) نحو ذمار .. ثم توجه إلى الأخطوط .. وانتقل إلى منكث[1] فأخرج منها خلقاً كثيراً من أهل الفساد حيث كانت مسرحاً للّواط والعاهرات .. وأمر الإمام الهادي (ع) بالقبض على من أمكن منهم .. فمن ثبتت عليه شهادة أمر فيه بحكم الله.

رحمه الله ١ غفر الله له غفر الله لهما الأخطوط ومنكث رضي الله عنه قريتان من القرى المجاورة لمدينة يريم رضي الله عنه

وقدم إليه رجل يسمى أبو العشيرة مع جماعة كبيرة من قومه .. فبايع الإمام الهادي (ع) وخرج معه .. ثم انتقل الإمام الهادي (ع) إلى قرية جيشان .. ثم خرج إلى ثاث .. وجعل في كل بلد رجلاً من خيار أصحابه ليرشدهم ويعلمهم أمور الدين.. ثم ولى عائداً إلى صنعاء .. ومنها إنتقل إلى شبام.

ولم يمكث الإمام الهادي (ع) طويلاً حتى أقبل عليه أناس من همدان ووادعة.

شيخ همدان: يا بن رسول الله لقد قطعت الطريق في بلادنا .. وانتهبت أموالنا .. وقويت شوكة الباطل. فاخرج معنا لإصلاح البلاد.

فأجابهم الإمام إلى ذلك إلا أنه لم يكن في وضع يمكنه من الخروج بنفسه لذلك حشد جيشاً عظيماً .. وأمّر عليه ابنه أبا القاسم .. وأمره بالتوجه إلى بلاد وادعة.

(٢)

وفي أنحاء متفرقة من البلاد التي زارها الإمام الهادي (ع)

كان هناك من يئن من وطأة العدالة بعد أن عاشوا دهراً طويلاً يتسلطون على رقاب الناس وأموالهم .. ويفعلون ما يحلو لهم .. لا يجدون من يردهم عن ذلك .. فلما أتى الإمام الهادي (ع) وبث نور عدله على البلاد .. ضاقت معائشهم وحُرموا ملذتهم .. فجعل بعض هؤلاء من أبناء أبي الخير اليعفري يبحثون عن رجل يتزعمهم بعد أن سجن أبو العتاهية كل رؤوس الفتنة .. فراسلوا فتية من آل يعفر كان أبو العتاهية قد تركهم خارج السجن.

ولكن أهل البلاد كانوا قد دانوا للهادي بالولاء ولذلك لم يستجب لهم أحد .. فخرجوا إلى ناحية من بلد تسمى قِدَم يسكنها قوم من الخوارج لم يكن أهلها قد عرفوا الإمام الهادي أو سمعوا به.

فلما وصل إبنا أبي الخير إلى تلك البلاد طلبا من أهلها النجدة والإعانة على أبي العتاهية والإمام الهادي.

فاجتمع لهما خلق كثير وواعدوهم ومنوهم بالأموال.

❊ ❊ ❊

كانت الفرصة قد سنحت للقوم بعد أن علموا بخروج محمد بن الهادي (ع) بالجيش إلى بلاد همدان.

فساروا متوجهين إلى جبل بيت ذخر .. ووصلت الأخبار إلى الإمام الهادي (ع) وهو في شبام .. فأرسل إلى ولاته في صنعاء ووادي ضهر وذمار بإرسال الجنود إليه .. وأقبلت بعض جنوده بينما كان البعض الآخر لا زال في الطريق إليه.

فولى الإمام الهادي محمد بن أبي عباد -وزير أبي العتاهية- على شبام وخرج متوجهاً نحو جبل ذخر.. ولكنه لما استقر في الجبل سرت أخباره إلى القوم .. وعلى الفور تغيرت وجهتهم.

ابن أبي الخير: يا قوم إن العلوي وأبا العتاهية قد خرجا في جيش عظيم لا قبل لنا به وهاهم قد سبقونا إلى جبل ذخر .. ولم يتركوا في شبام جيشاً يذكر .. فدعونا منهم وتعالوا لنسري هذه الليلة فنباغت محمد بن أبي عباد صباحاً في حصن شبام.

واتفقوا جميعاً على ذلك..

ولم تشرق شمس ذلك اليوم إلا وجيشهم يحيط بالحصن من كل مكان. وسرت الأموال من خارج الحصن إلى داخله لتجذب نحوها أصحاب الأهواء والطامعين في الدنيا.

فتسلل بعضهم إلى باب الحصن ففتحه للقوم.

كان ابن أبي عباد قد صلى بالناس الفجر .. وعاد إلى داره .. لا يظن بوجود جيش يحاصر شبام .. وتوجه جماعة منهم نحو سجن الحصن فأخرجوا من فيه كابن زياد وبعض أصحاب جفتم.

واستشعر محمد بن أبي عباد ما حدث .. فخرج من بيته وجمع الصنعانيين وخرج في وجهة القوم.

وأشتد القتال فيما بينهم .. وتكاثر الناس على محمد بن أبي عباد ورفاقه ورموهم بالحجارة .. وسقط محمد بن أبي عباد شهيداً .. فأنهزم أصحابه وصعد بعضهم الجبال .. وتوجه فريق منهم نحو صنعاء وآخرين نحو قاع البون ..

* * *

كانت بعض الوفود المقبلة من بعض المناطق لنصرة الإمام الهادي (ع) لم تصل بعد .. فالتقى المنهزمون بالوافدين من أهل وادي ضهر وغيرهم .. فهولوا عليهم الأمر .. وأخبروهم بمقتل محمد بن أبي عباد فتوقف جيش أهل وادي ضهر يتشاورون في الأمر..

أحدهم: يا قوم إني أرى ملك هذا العلوي قد أدبر .. فدعونا منه وتعالوا لنعود ولنخرج من في سجن وادي ضهر من المساجين من بني يعفر وبني طريف .. لعله يكون لنا بهذا عندهم يداً ومعروفاً..

وفعلاً عادوا وجمعوا معهم بعض مواليهم .. وأخرجوا السجناء .. وثاروا على والي الإمام هنالك فخرج إلى صنعاء.

وبلغ أهل البون خبر الهزيمة فتحرك صعصعة بن جعفر وانضم معه بعض من أجابه..

كان صعصعة رجلاً مفسداً حيث كان متسلطاً على أهل البون .. يجاهر بالمنكرات والمعاصي .. فلما جاء الإمام الهادي

(ع) عاقبه ومنعه..فلما بلغه خبر الهزيمة اغتنم الفرصة وجمع رجاله .. وتوجه إلى خيل كانت لعسكر الإمام الهادي (ع) فأخذها وقسمها بين أصحابه وأظهر العصيان .. وراسل ابني أبي الخير اليعفري..

* * *

وتوالت الأحداث وتنوقلت الأخبار ووصل إلى الإمام الهادي (ع) خبر دخول ابن أبي الخير إلى شبام ومقتل واليه محمد بن أبي عباد .. فوجه إليها أبا العتاهية ومحمد بن الدعام .. فلم يرتحلا حتى أتاه خبر أهل وادي ضهر أنهم قد هجموا على الجيش وأخرجوا المساجين .. وأن واليه قد رجع إلى صنعاء.

فكتب الإمام الهادي (ع) إلى واليه على صنعاء:

((من أمير المؤمنين الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين إلى والي صنعاء على بن سليمان احذر ثم احذر أن تخرج من صنعاء..))

فلم يستقر الإمام الهادي (ع) إلا ورسل أهل البون تصله.

صاحب البون: يا مولاي لقد عاد صعصعة إلى ما كان يفعل .. وأخذ بعض خيل الجند .. وقد جمع الغوغاء وهو يسعى في الأرض فساداً.

الإمام الهادي: أين علي بن العباس العلوي؟؟

علي بن العباس: ها أنذا يا مولاي.

الإمام الهادي: أخرج ببعض الجيش وامض حتى تعسكر في البون وأثبت فيه حتى أدعوك.

ثم أمره الإمام الهادي (ع) أن يكتب إلى ولده محمد بن الهادي وإلى الدعام بن إبراهيم أن يقبلوا عليه بمن استطاعوا من الجيش إلى شبام.

(٣)

كانت الأحداث متتابعة والفتن تقوم على قدم وساق في كل منطقة .. فخروج المفسدين من سجونهم أشعل البلاد

بالفتن حتى أن والي صنعاء على بن سليمان كان يقضي الليل مع جنوده لحراستها من النهب .. وسنحت الفرصة لابن محفوظ -وكان ممن عُرف بالفساد- فجمع بعض من كان قد أثقلهم حكم العدل وأحبوا العودة إلى سابق عهدهم.. وراسل أصحاب وادي ضهر لنصرته .. فاستجابوا لدعوته وتوجهوا بجمع كبير إلى صنعاء .. ولم يشعر بهم على بن سليمان إلا وقد صاروا على باب داره .. فخرج إليهم في سبعة من الطبرية فقاتلهم .. فلما كثروا عليه وشعر بالعجز عن مواجهتهم انسحب إلى مدر..

ودارت رحى الحرب والفتن في كل بلد وتواصل المفسدون .. وتراسلوا .. وعلم مشائخ العشائر بدخول آل يعفر إلى صنعاء .. فبادروا بإخراج ولاة الإمام الهادي (ع) من بلدانهم وكلٌ يرجو أن ينال بذلك عند آل يعفر وآل طريف يداً وكرامة.

ولما أقبل جيش الإمام الهادي (ع) إلى شبام بقيادة أبي العتاهية خرج من كان في شبام من المفسدين ودخلها أبو العتاهية.. واجتمع إليه الناس.. فصلى على محمد بن أبي عباد عند قبره .. وجعل يبكي ويقول: وددت أني كنت معك.. ورزقني الله ما رزقك.

* * *

أما الإمام الهادي (ع) فقد لحق بأبي العتاهية إلى شبام .. إلا أنه كان يتجرع كؤوس الألم والحزن ألواناً لما يرى من قلة رغبة الناس في الدين والعدل .. وبقي الإمام الهادي في شبام أياماً يفكر في أمره ويرعى أهله وحُرَمَه الذين كانوا قد أقبلوا إليه من صعدة..

ويوم أن أقبل عليه ولده محمد دخل عليه وهو مهموم مغموم..

محمد: فداك روحي يا أبي لا تهتم بامر هؤلاء الذين لا وفاء

لهم .. فالله يكفيكهم..

الإمام الهادي: والله لست أبالي .. ولكن الشيء الذي يشغلني يا أبا القاسم أن الحرب سجال يوم لك ويوم عليك .. وأخاف إن حدث لنا مكروه أن ينالوا من هذه الحُرَم والنسوة الضعاف .. فإنهم لا يتقون الله فيهم .. ولا يرعون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهن حرمة.

محمد: فماذا ترى أن نفعل يا أبي؟..

الإمام الهادي: إني أخاف أن نحصر في هذه البلاد .. وأرى أن نخرج منها .. فإن القوم قد أجمعوا على حربنا.. فأمر من يجمع متاعنا .. فإني خارج من هذه البلدة في الصباح .. فإن القوم ليسوا أهل دين .. وإني أخاف على حرم آل رسول الله.

محمد: أفعل ما رأيت يا أبي فأنا طوع أمرك.

* * *

وبعد أن عم ظلام الليل قرية شبام .. وسكن الناس .. ونامت العيون خرج الإمام الهادي (ع) من داره وتوجه إلى السجن .. ودخل على بعض آل طريف وآل يعفر وعلى رأسهم أسعد بن يعفر .. فدعاهم إليه فاجتمعوا عنده .. وأخبرهم بمكنون سره.

الإمام الهادي: يا قوم لقد أتيتكم بداع منكم ولم آت بلدكم طمعاً في ملك أو رئاسة .. وإنما أردت الإصلاح ما استطعت .. فتنكرتم لسلمعروف .. وأشعتم المنكر وتعمدتم قتالي .. فإنا لله وإنا إليه راجعون .. وإن أناساً منكم قد أثاروا الفتن في كل مكان من البلاد .. فقد وهبتكم أنفسكم فاتقوا الله في سركم وعلانيتكم.. فأخرجوا من شئتم.. فإني خارج من بلدكم في صباح هذا اليوم.

ولم تشرق شمس اليوم الثاني إلا والإمام الهادي (ع) يخرج بأهله ونسائه مصطحباً معه أبا العتاهية والدعام.

فلما رأى بعض السفهاء إنسحاب الإمام الهادي (ع) هموا بنهب أمتعته فعاد إليهم فقاتلهم وردهم وتوجه نحو البون .. وأرسل إلى علي بن أبي العباس ليلقاه في عسكره..

واستقبله أهل البون كل يرجو أن يكون الإمام الهادي (ع) ومن معه غنيمة له .. فأحاطوا به من كل جهة..

الإمام الهادي ـ وهو يشير إلى ولده محمد: أخرج إليهم يا ولدي فردهم عنا.

فلما برز إليهم واجهوه بالقتال فقاتلهم حتى انكشفوا عنه.

ومضى الإمام الهادي (ع) إلى ريدة .. وتفرق أصحابه وعاد كل منهم إلى أهله.

* * *

كان صعصعة وأبو زياد قد علما باستقرار الإمام الهادي (ع) في ريدة وقلة جنده فطمعا فيه أن يكون صيداً سهلاً.

صعصعة: ماذا ترى أن نفعل .. فإن العلوي في نفر قليل؟؟

أبو زياد: لقد رأيت الرجل وقتاله .. فلو لم يكن له إلا نفسه وولده ما هزم إذا واجهناه .. ولكن نأخذه على غِرّة.

صعصعة: كيف؟

أبو زياد: هو الآن في ريدة .. وإذا تسللنا إلى داخلها ودخلنا عليه في داره كره أن يصاب حريمه بأذى .. فأسلم نفسه مقابل نجاة نسائه.

صعصعة: الرأي ما رأيت..

وتحت جنح الظلام تحرك كل منهما بجماعته حتى أحاطوا بِرَيدة من كل جهة .. وتسللوا إلى الدروب حتى صاروا على مقربة من دار الإمام الهادي (ع) .. فرآهم بعض أصحاب الإمام فلم يتمالكوا أنفسهم .. فخرجوا يرجون النجاة بأنفسهم.

* * *

ولم يشعر الإمام الهادي (ع) بالقوم إلا وقد أحاطوا به من

كل جانب فلبس بعض متاعه .. ونادى ولده محمداً وأبا العتاهية .. وخرجوا كالأسود الكواسر ولحقهم بعض أهل الوفاء.. ودارت معركة رهيبة. كانت المعركة تدور في كل بقعة في الشوارع والأزقة وأفنية الدور..

وبعد ساعة من القتال أدرك صعصعة وابن زياد أن الصيد أعظم من أن يحويه كمينهم.. وأن الدائرة تدور عليهم.. فكشفوا عن جبنهم وأسرعوا في الفرار .. وخرج الإمام الهادي (ع) ومن معه يتبعونهم في كل درب.

الفصل الرابع

(١)

كانت مثل تلك الأحداث لا يمكن أن تخفى على أحد فقد حملت الركبان هذه الأخبار إلى كل بلد..

فلما بلغ بني الحارث ما حل بالإمام الهادي (ع) وتفرق أصحابه عنه جمع ابن بسطام وابن حميد بني الحارث .. وأخبروهم بما حل بالإمام الهادي (ع) .. ومنوهم في الأخذ بثأرهم وقتل محمد بن عبيد الله..

فاجتمع منهم ألف وخمسمائة راجل .. ومائة وثلاثون فارساً وتوجهوا نحو نجران لنهبها والقضاء على من فيها من أنصار الإمام الهادي (ع) .. فاجتمعوا في ميناس عند ابن بسطام الذي كان يريد بهذا الفعل أن تكون له يد عند بني

الحارث.

وعلم محمد بن عبيد الله فأرسل أخاه القاسم بن محمد وولده علي بن محمد لدعوة شاكر وثقيف .. وتوجهوا بمن معهم لمواجهة بني الحارث .. فلما صاروا إليه أقبل عليه بنو الحارث من كل جانب يريدون قتاله ونهب قرية الهجر .. وكان فيها الكثير من الضعفاء فحاصروا القرية ثلاثة أيام .. وخرج يناوشهم القتال مراراً ثم يعود.

وبينما محمد بن عبيد الله في حربه تلك.. أقبل علي بن محمد إليه قائلاً له:

- يا أبي إنك تنزل على قوم لا وفاء لهم وهؤلاء بنو عبد المدان من عشيرة بني الحارث .. فإني أخاف أن يغدروا بنا.. وأخاف على النساء والحريم والصبيان .. فإن القوم ليسوا بأهل ورع ولا تقوى.

محمد بن عبيد الله: نعم يا ولدي .. ولكن إلى أين نخرج؟ فإني

أكره أن أتحول عن موضع أمرني الهادي بالثبات فيه ..
فو الله لا أخرج من عند هؤلاء القوم إلا أن أراهم يكرهون بقائي.

وفي هذه اللحظة إستأذن للدخول عليه جماعة من مشائخ بني عبد المدان .. فلما استقروا في مجالسهم بدأهم الحديث قائلاً: ماذا هناك يا قوم؟.

محمد بن عاقل: يا أبا جعفر لقد طال حصار بني الحارث لقريتنا .. وهم بنو عمنا وأهلنا .. وقد كرهنا قتالهم .. وهم لا ينكفون عن حصارنا إلا إذا أخرجناك من بلدنا .. فإنا نرجوك أن تخرج عن بلدنا..

محمد بن عبيد الله: إني لم أبق في بلدكم إلا حماية لضعيفكم .. وإصلاحاً لأمركم .. وإني لم أطلب منكم نصرة ولا مدداً .. فأنا أخرج لقتال القوم في أهلي وعشيرتي .. ومن أقبل معي من شاكر وثقيف .. ولكن إذا كان قد أجمع

أمركم على هذا فأنا أخرج عن بلدكم.

ولما خرج القوم من عنده أمر بالنساء والصبيان إلى دار بن أبي الركود .. وجعل يعد نفسه للخروج في حين كان ابن بسطام يريد أن يوقع بمحمد بن عبيد الله لما علم باستعداده للخروج..

فجمع إليه وجهاء ومشائخ بني الحارث.

ابن بسطام: يا قوم إن محمداً بن عبيد الله قد يخرج من الهجر فإذا ظفرتم به فاقتلوه .. أما أنا فإني مرسل إليه أن ينزل عليّ في ميناس .. فإذا صار إليّ خليت بينكم وبينه فتقتلونه..

وقبيل أن ينطلق محمد بن عبيد الله من قرية الهجر وصلته رسل ابن بسطام يدعوه إلى دخول ميناس.

تصفح محمد بن عبيد الله رسالة ابن بسطام فلمس فيها رائحة الخيانة .. فردها رداً جميلاً.. ثم خرج من ساعته من درب لم يتوقع بنو الحارث أن يسلكه .. وتوجه نحو الحصن

فاجتمع إليه من فيه من شاكر وثقيف.. ثم أرسل لأهله ونسائه وأنزلهم الحصن..

ومع طلوع الشمس أدرك بنو الحارث خروجه من قرية الهجر .. فاستبق القوم في دخولها لنهب ما فيها .. فأهلكوا الحرث والنسل .. ولم يتركوا شيئاً إلا نهبوه.

وعلم ابن بسطام بنجاة محمد بن عبيد الله ووصوله إلى الحصن فضاق بذلك ذرعاً .. وطال همه واشتد غمه فقد قطع بما دبره من قتله.

ولكن ابن بسطام ما كان بالرجل الذي يمكن أن يرجع عما عزم عليه .. فقد جمع من الأموال ما استطاع جمعه .. ثم راسل مشائخ شاكر وثقيف خارج الحصن وحرضهم بإخراج محمد بن عبيد الله من حصنهم .. وأغراهم بأمواله وطمّعهم في المزيد .. فاجتمع منهم ثمانمائة مقاتل وأغاروا على الحصن فلما توقفوا على بابه خرج إليهم محمد بن عبيد الله ومن معه

من شاكر وثقيف مستعدين لقتال القوم ..

وأدرك المهاجمون أن لا سبيل إلى محمد بن عبيد الله ومن معه .. وأن قومهم سيحاربون بين يديه ..

فأرسلوا وجهاءهم إلى محمد بن عبيد الله واعتذروا إليه .. وأخبروه بما جعل لهم ابن بسطام من الأموال .. ورجعوا إلى أهليهم ..

وثارت ثائرة ابن بسطام واشتد غيظه وخاب أمله .. وأراد ففكر وقدر .. ومكر ودبر .. ولكن هيهات أن يبلغ ما أمل.. قد ثارت فتنة بين بني الحارث أنفسهم .. واشتد القتال بينهم .. وطال الشقاق .. ورد الله كيدهم في نحورهم .. ولما أوشكت نار تلك الفتنة أن تخبو توقدت نارُ الفتنة مرة أخرى بين شاكر ويام في كفة وبنو الحارث في كفة أخرى .. وطال القتال بينهم .. حتى بلغ قتلاهم إلى مائة قتيل{وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} {وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ}

(٢)

أما الإمام الهادي (ع) فقد جعل يرقب ما يدور من الفساد في البلاد .. وكان الإمام يدرك النار التي تلتهب في أعماق أبي العتاهية.. فأبو العتاهية دعاه ليستنقذ البلاد والعباد من الفساد لا أن يسلمها للمفسدين.. الأمر الذي جعل الإمام يتوقف عن مواصلة المسير إلى صعدة.

وجعل الإمام الهادي (ع) يتباطأ في مواصلة المسير لعله يجد ناصراً..

ولم تمض إلا أيام حتى أتت بشائر الفرج.. فقد أقبل عبدالله بن الحسين من الحجاز ومعه كوكبة من فرسان بني هاشم من مكة والمدينة فاستبشر الإمام الهادي (ع) بقدومهم.

وبعد أن استقبلهم الإمام الهادي (ع) وأخذوا قسطاً من الراحة التفت الإمام إلى أخيه عبد الله ثم قال له:

- هلا خرجت يا عبد الله لتطلب لنا النجدة من الدعام لعلنا نعود فنقاتل القوم.

فنهض عبد الله بن الحسين من ساعته وخرج يطلب بلد

الدعام وصار يتنقل من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية حتى وصل إلى الدعام وبلّغه الرسالة ورغّبه وأهله في الجهاد فبقي الدعام أياماً يتعلل عليه دون أن يجيب بشيء.. وفي الأخير صارحه الدعام بما في نفسه فقال:

- إن القوم في جماعة لا طاقة لكم بها.

فعاد عبد الله بن الحسين إلي أخيه صفر اليدين لكنه ما إن بلغ ريدة حتى رأى الهادي وقد رجع إليه بعض أصحابه .. وعبأهم للحرب واستعد للتوجه بهم إلى صنعاء .. فلحق عبدالله في ركب الإمام الهادي .. وتوجه مع أخيه الإمام الهادي لدخول صنعاء من جديد.

* * *

وبلغت أصداء ذلك الجيش القادم قواد آل يعفر وآل طريف فأرادوا أن يضعوا لهذه الحرب حداً .. ليعودوا إلى لهوهم ويتفرغوا لإشباع ملذاتهم .. فحشدوا الناس من كل سهل وجبل.

فأقبل جيش من شبام وآخر من وادي ضهر وحشد من أهل صنعاء .. منهم من كان يضمر العداء .. ومنهم من خرج ظناً منه أن الإمام الهادي (ع) إذا انتصر انتقم منهم لخذلانهم لواليه.

واجتمع القوم في جحفل كثير العدد كامل العدة .. فلما تراءى الجيشان وعاينوا جيش الإمام الهادي (ع) أصغروا أمره وهان عليهم خطبه فماهم إلا مجرد خمسمائة راجل .. وأقل من مائة فارس.. وأيقنت آل طريف وآل يعفر بتحقيق النصر.. وعاين القوم أبا العتاهية يقود خيل الإمام الهادي (ع) في الميسرة فتعاهدوا على النيل منه وقتله لإعتقادهم أنه من جر عليهم هذا البلاء.

ونادى الإمام الهادي (ع) على الطبرية .. وكانوا من أولاد جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب والعباس ين علي وعمر بن علي وآخرين .. وهم أكثر الناس طاعة للإمام فلا يردون له طلباً.

الإمام الهادي: انزلوا عن خيلكم وأعطوها للمضرية.

فنزلوا وأسلموا خيلهم واستعدوا للقتال مترجلين .. وباغت الجميع سيل من الفرسان يتوجه إلى ميسرة أبي العتاهية .. وأبو العتاهية ثابت في مكانه .. وتناوش القوم من يمين وشمال وهو ثابت لا يتزحزح .. وأدرك الإمام الهادي (ع) مراد القوم فعطف عليهم بجمع ممن معه في هجوم مضاد .. حتى خالطهم .. فتراجع خيل القوم لقوة الهجوم..

ثم مضى الإمام الهادي (ع) في تقدمه لا تثبت أمامه فرقة أو كتيبة من الجيش إلا أثخنهم جرحاً وقتلاً ..

وكان بيده ذو الفقار وهو يقول:

الخيل تشهد لي وكل مثقف بالصبر والإبلاء والإقدام
حقاً ويشهد ذو الفقار بأنني أرويت حَدَّيه نجيع طغام
نهلاً وعلاً في المواقف كلها طلباً بثأر الدين والإسلام
حتى تذكر ذو الفقار مواقفاً من ذي المعالي السيد القمقام

جَدي عليٌّ ذوالفضائل والنُّهى سيف الإله وكاسر الأصنام

صنو الرسول وخير من وطئ بعد النبي إمام كل أمام

وتفرق جيش آل يعفر وآل طريف .. وتقدم الإمام الهادي (ع) ليدخل صنعاء بجمعه القليل.. ولم يقتل في معسكره إلا رجلاً واحداً عقيلياً .. فلما رأى أهل صنعاء قلة جيش الإمام الهادي (ع) بعد ما عرفوه من كثرة الخارجين لقتاله اشتد عجبهم لانتصاره .. فلما بلغ الإمام الهادي ذلك عجب من قولهم .. وقال:

- ويحهم ما يعجبون من ذلك .. ولو كان معي ألفي راجل وخمسمائة فارس مؤمنين صابرين لدوّخت بهم الأرض .. أين مَنِ اللهُ معه ممن لا نصيب له من الله تعالى؟! {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}.

ثم جعل يتمثل بقول الشاعر:

ويوم كأن المصطلين بِحرِّه وإن لم يكن جمر وقوف على جمر
صبرنا لـه حتى يبوح وإنما تُفتَّح أبواب الكريهة بالصبر

وعكف الإمام الهادي (ع) بعد هذا النصر في محرابه يشكر الله على نصره وإعانته..

* * *

وبينما ظلام الليل يلف مدينة صنعاء لتنام العيون .. وتحط الأجساد عن كواهلها عناء معركة الأمس .. ويسري الصمت القاتل إلى كل دار..

كان هناك عين لا تنام رغم ما نال صاحبها من العناء .. وما تجشمه من مشقة الحرب والسفر.. إلا أنه كان يشعر أن هناك دين لله عنده بما منّ الله عليه من النصر والإغاثة .. فهجر مضجعه وتوجه إلى محراب المناجاة .. فيسمع له صوت ينبعث من محرابه..

«**اللهم ألهمنا الصبر .. وأعظم لنا الأجر .. وتقبل منا عملنا .. وأجعله خالصاً لك ولا يشوبه عمل لغيرك .. يا**

أرحم الراحمين.. حسبنا الله ونعم الوكيل .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

اللهم لحربهم لك حاربناهم .. ولردهم لكتابك قاتلناهم .. ومن بعد الدعوة إلى الحق لهم نابذناهم..

اللهم فأحكم بيننا وبينهم بالحق .. وأنت خير الحاكمين)).

وأتي يوم الجمعة ليعتلي الإمام الهادي (ع) منبر الجامع الكبير بصنعاء ليقول -مخاطباً أهل صنعاء:

((ما نقمتم علي إلا ما حكى الله في كتابه عن قوم لوط في قولهم: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} ولكني أقول لكم كما قال عمي يوسف صلى الله عليه : {لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ})).

فلا توعد ولا انتقام ولا قتل و لا تشريد .. بل عفو وإحسان وتجاوز عن الأذى .. شعاره: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}

ولكم كان الإمام الهادي صادقاً في قوله حين قال عن

نفسه: (لإن أطعتموني لا يغيب من رسول الله إلا شخصه).

الفصل الخامس

(١)

اشتعلت نار الأحقاد .. وتحولت إلى جحيم وقودها الناس والضمائر .. فأحرقت الفضائل والتهمت القيم والشمائل .. واجتمع أرباب الفساد في قمة جبل نقم المشرف على صنعاء يتربصون بالهادي ومن معه من المؤمنين الدوائر.

وخرج المسلمون لأداء صلاة عيدهم .. تتغشاهم الفرحة والبهجة والاطمئنان إلى العدل الذي نزل على ديارهم .. فحمى أموالهم واستنقذ أعراضهم.

ولكن هناك من كان يريد أن يقتل الفرحة في قلوبهم .. فالحسد قد أشقاه وحب الإمارة والتسلط قد أعماه.

فبينما الناس يؤدون صلاتهم .. إذا بإبراهيم بن خلف وآل طريف يقتحمون أبواب صنعاء لينفذوا بجيشهم إلى

ميدانها .. ليحولوا الفرحة حزناً .. والأمان خوفاً .. والسعادة شقاء.

وانسل الإمام الهادي (ع) من محراب المناجاة إلى ساحة الوغى .. ليدفع عن ضعفاء الناس الشر النازل بهم.

ودارت أحداث المعركة في كل مكان على السور والأبواب وفي الميادين .. وتراجع الجيش المهاجم إلى خارج صنعاء.

وصاح الإمام الهادي في أصحابه:

- لا يرجعن أحد إلى أهله إلا وقد غزونا القوم في عقر ديارهم.

وتقدم الإمام الهادي (ع) إلى أن بلغ معسكر القوم فأخذ أسلحتهم وفرق جمعهم .. ثم عاد إلى الناس ليعيد إليهم فرحتهم ويجلي عنهم هم كربهم .. فلما تم للناس عيدهم واستقر أمرهم وتمت للصبيان فرحتهم .. جمع الإمام

الهادي (ع) خيرة أصحابه وأنصاره.

الإمام الهادي: يا قوم أن أهل الفساد يتربصون بكم الدوائر .. وينتظرون منكم غفلة لينقضوا عليكم كالوحوش الكاسرة ليجتثوا خضراءكم ويفرقوا جمعكم .. فما ترون أن نفعل؟

أبو العتاهية: نغزوهم قبل أن يغزونا يا أمير المؤمنين.. وأنا من سيخرج إليهم.

كان محمد بن الهادي يتأمل في وجه أبي العتاهية .. ثم قال له-في إشفاق ورحمة:

- كيف تخرج إليهم وقد شحب لونك ونحل جسدك!! أي شيء يا أبا العتاهية تنزله بنفسك؟؟ يا رجل إرأف بنفسك إن الإسلام بحاجة إليك.

أبو العتاهية: لا تشغل نفسك يا ابن رسول الله.. إنما هو لحم نبت من السحت أردت أن أذيبه .. فأذيق نفسي مرارة

الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية .. وإني أرجو الشهادة بين أيديكم.

الإمام الهادي: بلّغك الله مناك يا أبا العتاهية .. وغفر لك ذنبك فكلنا نرجو الشهادة.

على بن سليمان: يا ابن رسول الله اجعلني مع أبي العتاهية في هذا الجيش.

الإمام الهادي: تخرجان معاً على بركة الله.

وبعد أيام تمركز جيش الإمام الهادي (ع) بقيادة أبي العتاهية في قلعة علب .. فخرج إليه خيل القوم فنزل إليهم فقاتلهم وكشفهم.

ولكن القوم طمعوا في قلة جنود أبي العتاهية .. فخرجوا بجحافلهم وأحاطوا بالقلعة .. فلم يشعروا إلا بالإمام الهادي(ع) وقد أحاطهم بجنده من خلفهم واشتد القتال .. وعلت الأصوات .. ولاذ القوم بالفرار إلى معسكرهم في

بيت بَوْس.

وتبعهم علي بن سليمان في قلة من أصحابه فاستطرد القوم له حتى صار في أوساطهم .. فعطفوا عليه وصوّبوا سهامهم وسيوفهم نحوه.

كان أبو العتاهية يعاين ذلك المشهد عن بعد .. فلما رأى ما فعله القوم صاح بمن معه:

- من كان يريد الشهادة فلينهض لنستنقذ الرجل.

وانطلق أبو العتاهية بسرعة يفرق الجموع .. ويخترق الصفوف لا يلوي على شيء مما حوله .. وغاب علي بن سليمان عن ناظره .. حين سقط عن خيله .. وما هي إلا لحظات حتى كان أبو العتاهية يقف على رأس علي بن سليمان بعد أن أُثخن بالجراح .. وأصيبت دابته فرمته عن ظهرها فصار هدفاً سهلاً لرماح القوم.

أبو العتاهية ـ وهو يترجل عن دابته ويحمل بطرف علي بن

سليمان: إصعد يا أخي على دابتي .. وانجُ بنفسك .. فإن جراحك شديدة.

علي بن سليمان: دعني فإني أوشك أن أنال مرادي .. إنها الشهادة يا أبا العتاهية.

أبو العتاهية: اركب يا رجل إن القوم يكثرون من حولنا .. وإني أرجو أن تشفى من جراحك .. فالإسلام لا يستغني عن سيفك.

علي بن سليمان: كيف أركب؟. وأنا أعلم أنك ستقتل إن قاتلت القوم راجلاً.

أبو العتاهية ـوهو يشير إلى بعض إخوانه ليعينوه على حمله:

دعك من هذا واركب فإنما تخوفني بما إليه شوقي
وفيه أملي.

وانطلقت الدابة إلى معسكر الإمام الهادي (ع) تحمل علي

بن سليمان .. ووقف أبو العتاهية في وجه القوم يجالد عن أصحابه ويأمرهم بالتراجع بعد أن صاروا في مكان أشبه بالحلقة.

* * *

وهناك كانت عين حاقدة ترقب تحركات أبي العتاهية.

فلما انكشف أصحابه عنه وجّه إليه نشابة أهدت إلى أبي العتاهية مراده وبلغته منيته.

فعلا صوت الحمد والشكر من لسانه .. وصعدت روحه إلى بارئها راضية مرضية .. وكأن كل ما في الكون يناديها {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} .

وإلى جوار أبي العتاهية كان رجل من أحفاد الإمام الحسين(ع) يودع الحياة هو الآخر .. لتترافق الأرواح الطاهرة من أهل البيت مع شيعتهم في ساحات الجِنان وفي عالم الأرواح ..كما ترافقت أجسادهم في عالم الدنيا.

ووصل الفرس الذي يحمل علي بن سليمان إلى الإمام

الهادي(ع) فأسرع في تضميد جراحه .. وبذل القوم جهودهم في استنقاذه من الموت .. ولكن الروح المشتاقة إلى بارئها أبت إلا أن تفارق الجسد .. وامتزج هواء الزفير بأحرف الشهادة.

وتملّكت قلب الإمام الهادي (ع) غمامة من الحزن .. وأراد الله أن يبلغ بشيخ بني هاشم أعظم الأجر إذ لم يكد يلتفت إلى جواره إلا وقافلة من الشهداء يُحملون إليه على أكتاف الرجال.

وكشف عن وجه الشهيد الأول فسمع الغطيط في حلقومه.. لقد كان صاحب الجثة هو أبو العتاهية.

فانهمرت الدموع من عيني الإمام الهادي (ع) وجعل يقول: رحم الله أبا العتاهية فقد بلغ مراده.

ثم كشف الإمام عن وجه الشهيد الثاني والثالث والرابع فإذا هم من الطبرية .. أعظم أهل الدنيا إخلاصاً وحباً لدين الله ولأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..

ولم يقف الأمر عند هذا الحد .. فقد دخل على الإمام الهادي في تلك اللحظة أحد الجنود ليلقي على الإمام

خبراً لا شك أنه سيزيد من الحزن والألم في نفسه.

الجندي: يا ابن رسول الله لقد وصل إلى القوم نجدة من الحكمي[1]

(٢)

وهناك في العراق وبعد طول انتظار ذاق فيه أحمد بن عباد الأكيلي أنواع المهانة والمذلة .. وصار أشبه بالمتسولين على أبواب السلاطين .. أقبلت أخبار اليمن إلى المكتفي خليفة بني العباس في العراق بأن الهادي قد دخل صنعاء .. فثارت ثائرة الخليفة..

وهنا ذكر ابن عباد .. وأمر من يبحث عنه .. فلما أدخل ابن عباد على الخليفة قال له:

- يا ابن عباد .. أعد نفسك للسفر.

ابن عباد: يا أمير المؤمنين ألا تمدني بالجند والجيش؟

---

١ غفر الله لهما كان الحكمي حاكماً على مناطق تهامة وما حولها رضي الله عنهما

الخليفة المكتفي: سترافق الجيش الذي يقوده أحد الأمراء لإخراج ذلك العلوي من بلاد اليمن.

لقد كان ابن عباد يرجو أن ينال رضاء الخليفة فيعطيه إمارة اليمن.

إلا أنه فرح بذلك أشد الفرح.. بعد أن نال ولو بعض مراده.

ولكن الظروف تفاقمت .. وزادت فتنة القرامطة .. فلم ينفذ ذلك الجيش إلى اليمن .. وخابت آمال ابن عباد الأكيلي.

* * *

وأقبلت رسل أهل المدينة من قرابة الإمام الهادي (ع) ليبلغوه أخبار ذلك الجيش القادم من العراق ظناً منهم أن الخليفة العباسي سينفذه إلى اليمن في حين كان هناك جيش آخر في جمع كثيف يزحف في تلك اللحظات لا يفصله عن صنعاء إلا أميال.

محمد بن الهادي: أبي .. أبي .. خذ الحذر أعد الناس للقتال ..

فإن آل طريف وإبراهيم بن خلف وأعوانهم قد خدعوا الناس وأوهموهم أنك قد أسلمت إليهم البلاد .. فطلبوا منهم أن يدخلوا معهم لصلاة الجمعة في هذا اليوم في صنعاء.

وبالفعل كانت الشوارع والمنافذ قد غصت بالناس يسيرون في ركب آل طريف ..

وخرج الإمام الهادي (ع) لملاقاة القوم في خمسمائة من المهاجرين وفي عدد من الصنعانيين والصعديين .. والتقى الجيشان في معركة غير متكافئة لا في العدد ولا في العدة ولا حتى في الإيمان .. وفنيت ساعات النهار في ساحات الجهاد .. وأقبل الليل والناس في قتالهم ..

* * *

عاد محمد بن الهادي متعباً مرهقاً .. فآوى إلى فرقة من الجيش للمبيت معهم .. فلما استقر بينهم .. سمع أحدهم

يقول: أين الأمير؟

محمد بن الهادي: ومن الأمير؟

الجندي: إبراهيم بن خلف.

وهنا أدرك محمد بن الهادي أنه في وسط معسكر القوم .. وقبل أن يتحقق الجندي من شخصية محدثه كان محمد بن الهادي يضربه بالعمود وينصرف .. ولكن القوم كادوا أن يدركوه .. فعلم الإمام الهادي (ع) بالأمر فعطف على القوم فاستنقذ ولده ..

وبينما الإمام الهادي (ع) يولي راجعاً إذ رأى رجلاً من الطبرية وقد كاد القوم أن يدركوه.. فناداه الإمام قائلا:

- أسرع يا رجل فالقوم في أثرك.

الطبري: لقد عييت يا ابن رسول الله.

فأقبل عليه الإمام الهادي (ع) فحمله بساعده القوي .. وأردف به خلفه على فرسه وعاد إلى معسكره في صنعاء..

ولم يمض ثلث الليل الأول إلا وجماعة من الفرسان يطرقون أبواب صنعاء يريدون لقاء الإمام .. فاستقبلهم الإمام .. فإذا هم جماعة من الطبرية قد أقبلوا من طبرستان للجهاد بين يديه (فمن خذله الأقربون هيأ الله له الأبعدين).

* * *

وفي الصباح الباكر .. كانت جيوش آل طريف وإبراهيم بن خلف تعسكر على أبواب صنعاء وفي ميادينها ..

فخرج الإمام الهادي (ع) مع جنوده لخوض المعركة من جديد .. ولكن الإمام الهادي (ع) كان ينظر إلى أصحابه في إشفاق وينظر إلى من غرر بهم القوم من عامة الناس كذلك.. فقرر أن يفتدي الفريقين بنفسه فخرج إلى ما بين الصفين ونادى بأعلى صوته:

- يا ابن خلف .. علامَ يقتتل الناس بيني وبينك؟ أبرز إليّ .. فإن ظفرت بي أرحت مني الكافرين .. وإن ظفرت بك أرحت منك المؤمنين.

ولكن الإجابة كانت من نوع يكشف عن مخابر الرجال وأصلهم.. فقد عاد إبراهيم بن خلف إلى مؤخرة جيشه .. وأبى أن يخرج لمبارزة الإمام الهادي .. وأشار لجيشه بالهجوم فهجموا نحو جيش الإمام الهادي .. وأختلط الجيشان واشتد القتال.

ووصل إلى الإمام الهادي (ع) نجدة من جعفر بن إبراهيم الجعفري بقيادة الربيع بن الروية -وكان أميراً على قبائل مذحج (مأرب).

وأشرفت الشمس على الغروب .. وأعد الإمام الهادي (ع) ترتيب جيشه ليعود إلى معسكره .

ونادى في الناس أن يكفوا عن مطاردة القوم .. وتراجع جيش الإمام الهادي (ع) .. ولكن جماعة من الطبرية لم يبلغهم النداء توغّلوا في المطاردة فعطف القوم عليهم.

وأدركهم الإمام الهادي (ع) ببصره بعد أن أمر الجيش بالرجوع إلى المعسكر .. فترك ما بين يديه وانطلق لإنقاذهم .. وتوغّل في أوساط جيش إبراهيم بن خلف فطعن رجلاً

منهم .. فكف الناس عن الطبرية .. فأراد أن يخرج بهم .. ولكن هيهات أن يخرج فقد سد القوم طريق العودة .. فتنحى عن الطريق فرموه بالحجارة والسهام .. وأحاطوا به من كل جانب .. وأصابت حجر فرسه على أصل أذنه فسقط الفرس..

وما إن سقط الإمام الهادي (ع) عن فرسه حتى رماه أحدهم بحجر فأُغمي عليه .. وعلا الصوت في المعسكر: (قتل الهادي .. قتل الهادي).

عند ذلك عطف محمد بن الهادي بجماعة من خُلّص أصحابه .. فكشف القوم عن أبيه .. وحمله على فرس آخر وجعل الناس يقاتلون عن يمينه وشماله .. فلما ثبت الإمام على فرسه صاح بقوم يعرفهم فأقبلوا عليه .. فجعل يقاتل القوم .. ولكن الجرح الذي في رأسه كان قد أغرق عينيه ووجهه بالدماء..

الإمام الهادي: يا أبا القاسم .. اثبت مكاني في الخيل حتى أغسل وجهي.

أبو القاسم: سمعاً وطاعة يا أبي.

وكثر القوم واجتمعوا يرجون أن ينالوا مرادهم من الإمام الهادي (ع) .. فعاد إليهم وقد غسل وجهه.. فجعل يقاتل القوم ويأمر المشاة من أصحابه بالخروج من تلك الحلقة التي كانوا قد طوقوا بها.

فلما اطمأن الإمام على أصحابه جعل يتراجع ويحمي ظهورهم .. ولكن جنود الحكمي أقحموا أنفسهم في متابعة مؤخرة جيش الإمام الهادي (ع).

فقال الإمام الهادي (ع) لولده محمد:

- يا محمد.. اعطف على القوم فإنهم لا يتركوننا.

فبادر محمد بن الهادي نحو القوم فقتل قائدهم وأحد

فرسانهم .. فتراجع القوم.

وانصرف الإمام الهادي (ع) مثخناً بالجراح .. وقد قتل من أصحابه العشرات من الطبرية والصنعانيين..

(٣)

بات الإمام الهادي (ع) ليلته فاشتدت عليه علته فلم يستطع أن يخرج من داره .. ولا أن يعتلي ظهر فرسه .. وشاع في الناس خبر مرضه .. وظنه الناس يهلك من تلك العلة التي نزلت به.

فخاف الإمام الهادي (ع) إن علم آل طريف وآل يعفر وإبراهيم بن خلف بعلته أن يبادروا إلى حربه.

فجعل يرسل السرية تلو السرية في حرب القوم يناوشهم في أطراف البلاد .. ويهاجمهم في معسكراتهم.

وكان القائم على قيادة الجيش ولده محمد وأخوه عبد الله بن الحسين..

وفي مساء أحد الأيام أتت الأخبار من عند ابن الروية أنه قد دخل قلعة ابن زياد -أحد قواد آل طريف- وطلب من الإمام الهادي أن يرسل إليه أخاه الربيع بن الروية _وبعض جنود الجعفري فأجابه الإمام الهادي (ع) إلى طلبه.

وتواصل قادة جيش آل طريف وآل يعفر.. وعلموا بما قام به ابن الروية فأجمع أمرهم على الخروج لقتاله .. وعلم الإمام الهادي (ع) بذلك فجمع ابنه محمداً وأخاه عبد الله وقال لهما:

- أخرجا إلى بيت بَوْس وقفوا في وجوه معسكر القوم حتى لا يمدوا جيشهم الذي يقابل ابن الروية.. ولا تنصرفا حتى تأتيكم أنباء ابن الروية.

فخرج جيش عبد الله بن الحسين ومحمد بن الهادي بمن معهما من الجنود .. فلما أوشكت الشمس أن تغيب وصلت أنباء ابن الروية أنه قد قتل .. وأن القوم دخلوا القلعة .. فرجع جيش الإمام الهادي (ع) إلى صنعاء يحملون هذا الخبر المشئوم.

* * *

وبعد أن تماثل الإمام الهادي (ع) للشفاء وصار يخرج لأداء الفروض .. أمر أن يجمع له الناس .. فلما اجتمعوا ركب فرسه ثم خطب فيهم وأثنى عليهم وشكر لهم حسن بلائهم وصبرهم .. ثم إنه أطلعهم على حقيقة أمر كان قد أخفاه عنهم.

الإمام الهادي: يا قوم إن الحرب قد طالت وقد أثقلتني مؤن تجهيز الجيوش. وقد انقطع عنا المدد ولا نفقة عندي للعسكر. فمن كان لديه ما يخرجه في سبيل الله أخرجه.

ولكن القوم لم يجيبوه بشيء، ولم يعطوه من قليل ولا كثير.

فلما اشتد به الأمر وعلم أن العسكر لا تقوم إلا بنفقة .. شاور أصحابه في الأمر فأشاروا عليه بطلب المعونة من أهل صنعاء.

فجمع أهل صنعاء وفيهم أهل المال والثراء فردوه أسوأ رد .. فرأى أن لا طريق إلا الخروج .. وكان قد عادت إليه

شيء من علته .. فجمع أصحابه ثم غادر داره عازماً على الخروج من صنعاء..

واجتمع أهل صنعاء ينظرون خروجهم.. فجعل الإمام الهادي (ع) يقول:

- والله لتمنوني فُواق[1] .. ولتباعنّ نساءكم بالدينار والدينارين والثلاثة .. وليغرينكم بلباس الجوع والخوف.

فقال له بعض أهل صنعاء: أتعدنا بسبي حرمنا .. وأن تفعل بنا كما فعل صاحب البصرة.

الإمام الهادي: ليس ما قلت لكم من بيع الحرم منا ولا من بني طريف ولا من بني يعفر.. ولتعرفن صدق قولي قريباً .. جزاء من الله على فعلكم وخذلاناً منه على صنيعكم {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}.

---

[1] رحمه الله غفر الله له غفر الله لهما الفُواق رضي الله عنه الشهيق عند خروج الروح رضي الله عنه والمعنى رضي الله عنه لتتمنوني تمني المحتضر للموت رضي الله عنه عليه السلام و نحو ذلك رضي الله عنه

كان الإمام الهادي (ع) ينظر بعين المستقبل .. ففي تلك الأيام كان قد وصل علي بن الفضل إلى بلاد اليمن .. وبدأت الدعوة القرمطية بالانتشار[1].

أما أحمد بن عباد الأكيلي فإنه لما يئس من استجابة الخليفة المكتفي خرج من العراق ذليلاً مهاناً لم يقم له أحد حرمة ولا عرفوا له حقاً.. ودخل وادي علاف في خفاء كي لا يعلم الإمام الهادي (ع) بقدومه وجعل يراسل آل طريف والحكمي .. فأرسلوا إليه الجنود .. على أن يحارب الإمام الهادي (ع) ويشغله عنهم.

وعلم الإمام الهادي (ع) بذلك .. فأرسل إلى بني كليب: ((أخرجوا هذا الرجل من بلدكم وإلا قاتلتكم)) .. فأخرجوه

ولما اشتد خطره أمر الإمام الهادي (ع) بجمع الناس ..

---

[1] رحمه الله غفر الله له غفر الله لهما وعليه السلام قول رضي الله عنه إنما ذلك من علم الغيب الذي يظهره الله لأوليائه قال تعالى رضي الله عنه {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه عليه السلام أحداً إلا من ارتضى من رسول} عليه السلام ه رضي الله عنه مصححه رضي الله عنه

وخرج في جيش عظيم .. فتفرق جنود آل طريف والحكمي عن ابن عباد .. ولكن الإمام الهادي (ع) لم يظفر به ..

وعلم ابن عباد أن الإمام الهادي (ع) لن يدعه فجمع وجهاء قومه .. وطلب منهم أن يقدموا على الإمام الهادي (ع) لطلب الأمان .. فأجابهم الإمام الهادي (ع) إلى ذلك ..

وبعد أيام خرج الإمام الهادي لتأديب بعض قُطّاع الطريق من وائلة فسار إلى كتاف وواسط ثم عاد إلى مدينة صعدة ليتخذ منها مستقراً له وعاصمة لدولته.

* * *

كان الإمام الهادي (ع) قد ضاقت نفسه لما رأى من عدم وفاء الناس .. وقلة حبهم للدين وأهله .. فكرس جهوده لإصلاح شئون البلاد التي أعلنت له البيعة وانقادت لحكمه .. وعكف على العبادة والتدريس فكان يقول

لأصحابه:

«**أين الراغب؟! .. أين من يطلب العلم؟! .. إنما يجيبني مجاهد راغب في فضله .. مُتحرِّ ما عند الله لأَهْلِه .. ولعمري إنه لأكبر فروض الله على عبده .. وأحق ما تقدمه يده .. ولكن لو كان مع ذلك رغبة لصادفوا من يحيى بن الحسين علماً جماً**».

* * *

وفي ذات مساء خرج الإمام من داره إلى المسجد يرافقه خادمه سليم .. فلما بلغ المسجد إلتفت إلى سليم .. وقال له: انصرف يا سليم وعد إليّ في موعدك.

ثم تولى ودخل المسجد .. ولم تمض لحظات حتى ظهر في الظلام شبح إنسان يلتمس الطريق في الظلام .. ويرقب حركات الإمام الهادي (ع).

كان الإمام غارقاً في المناجاة والدعاء .. تراه راكعاً ثم

ساجداً .. يتضرع ويشتكي إلى الله .. فلما كان قبيل الفجر تحرك الواقف على الباب .. فأحس الإمام الهادي (ع) بتلك الحركة.

الإمام الهادي: من هذا؟.

سليم: أنا يا مولاي.

الإمام الهادي: سليم !! .. ما عجل بك اليوم في غير حينك.

سليم: ما برحت البارحة جعلت فداك.

الإمام الهادي: كيف يا سليم .. وقد أمرتك بالانصراف.

سليم: المعذرة يا مولاي .. لقد طال اصطحابي لك إلى هذا المكان .. فسولت لي نفسي وغلبني هواي لمعرفة ما تفعل..!

الإمام الهادي: يا سليم حملتك من الأيمان أغلظها أن لا حَدّثْتَ بما رأيت أحداً في حياتي فإذا مت فأنت حرٌ.

الباب الثاني

الفصل الأول

(١)

كان الإمام الهادي(ع)قد خرج من صنعاء.. فدخلها آل طريف وآل يعفر وإبراهيم بن خلف.. وتنافس القوم فيما.. بينهم واشتد خلافهم.. كل يريد الأمر لنفسه.

وخرج الأمر من الخفاء إلى العلن .. واتفق رأي آل طريف وإبراهيم بن خلف .. فقبضوا على ابن أبي الخير اليعفري وسجنوه .. وأخرجوا من بقي منهم في صنعاء وعلى رأسهم

أسعد بن إبراهيم بن يعفر .. وكان آل يعفر قد كرهوا كثرة الفساد والفسق فكان هذا مصيرهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولم يجدوا لهم ناصراً.

فاتجهت أنظارهم نحو شمال اليمن .. فهناك يجدون الناصر .. ولكن من يتجاسر على طلب النجدة والإعانة ممن حاربوه بالأمس وآذوه وطردوه.

أحدهم ـ وهو يكلم أسعد: يا مولاي .. لو راسلت الدعام فيكون لنا وسيطاً عند الهادي.

أسعد: الرأي ما رأيت يا فتى.

وبدأت سلسلة من الرسائل والهدايا تصل إلى الدعام .. فكتب الدعام إلى الإمام الهادي (ع) يرغبه في الخروج.

وفي الصباح كانت رسل الدعام تصل من جديد لتطرق باب الإمام الهادي (ع) .. وتطلبه الخروج إلى صنعاء .. ولكن الإمام الهادي (ع) لم يلتفت إلى القوم.

وبعد أيام قليلة وصل الدعام بنفسه إلى الإمام.

الدعام: يا ابن رسول الله .. استوت لك الأمور واستوثقت لك من القوم .. ولم يبق إلا الخروج.

فلما رأى الإمام الهادي (ع) إصرار الدعام ورجا أن يستجيب الناس لدين الله .. خرج مع الدعام .. وأرسل من يأخذ له البيعة من آل يعفر وأتباعهم .. فلما أتته البيعة تقدم نحو صنعاء .. فلما نزل صَلِيل علم أن إبراهيم بن خلف يرقب تحركاته ويتحين الفرصة للهجوم عليه .. فتوجه إلى بيت حاضر.

فبادره إبراهيم بن خلف بجموعه .. فأخرج إليه الإمام الهادي (ع) بعض قبائل خولان .. ثم أردفهم بأهل همدان .. والإمام الهادي (ع) واقف لا يشترك في المعركة بكل جيشه.

محمدبن الهادي: متى تحارب هذا الفاسق يا أبي؟!

الإمام الهادي: يا بني ليس لنا ما نحارب به .. المؤن قليلة

والجيش ضعيف .. وهذه البلاد قليلة الثمر والمرعى .. وقد راسلت إلى ابن الروية والجعفري .. وأني أرجو أن يصلنا منهم مدد.

وطال الانتظار .. واشتد القتال وضاق على الإمام الهادي(ع) ومن معه المكان .. فخرج الإمام الهادي (ع) من تلك البلد ليلاً فنزل بمدر واشتد الجوع على الناس .. فأقبل أهل همدان وخولان يستأذنون الإمام في العودة إلى ديارهم .. فأذن لهم الإمام.

وعلم آل طريف بقلة جيش الإمام الهادي (ع) .. فأقبلوا في جيش كثير العدد والعدة .. حتى نزلوا بالقرب من الإمام وأصحابه.

وهنا أسرع الإمام في إرسال الصوارخ في همدان وخولان .. ولكن من يستجيب للإمام على قلة ما في يده؟! فقد هب الناس إلى آل طريف من كل مكان .. حتى أن صوراخ الإمام الهادي (عليه السلام) كانت تدعو الناس

للخروج مع آل طريف!

ولما يئس الإمام الهادي (ع) من وصول المدد وخاف أن يطوقوه ومن معه عبأ جيشه.. فجعل من معه من همدان على الميمنة .. ومن معه من خولان على الميسرة .. ووقف هو في القلب مع الطبرية .. وخرج إلى القوم .. فالتحمت ميسرة القوم مع ميمنة الإمام .. فثبتوا وأنزلوا النكاية بِعدوِّهم ثم طردوهم من مواقعهم .. فكبرّ الناس و اشتدت عزائمهم.

ولكن الخيانة كان قد سرت إلى بعض أفراد جيش الإمام .. فقد أقبلت ميمنة القوم .. فأشار إليهم رجل من جيش الإمام يسمى محمد بن بهار الخيواني بالتقدم ثم انهزم .. فتبعه الناس وتبعه جنود آل طريف.

التفت الإمام الهادي (ع) فرأى القوم قد صاروا خلفه وأمامه ..وتفرق الناس عنه .. وثبت الطبريون وبنو عمه من

العلوية إلى جواره.

وهنا نادى الإمام الهادي (ع) ولده أحمد وقال له:

- بُنَي أخرج إلى الدعام .. وأطلب النجدة فإن القوم قد أخذوا علينا الطريق.

* * *

كان الدعام يرقب أحداث المعركة من قريب واستقبل رسول الإمام الهادي بعد أن وصل إليه.

أحمد بن الهادي: إن أبي يقول لك .. أقدم عليه بمن معك.

الدعام ـ وهو يشح بوجهه: قل لأبيك ينجو بنفسه فليس هذا الوقت بوقت قتال.

رأى أحمد بن الهادي كراهية الدعام للقتال.. بينما القوم يحاصرون أباه ومن معه من كل جهة.. فرجع على الفور إلى أبيه من عند الدعام صفر اليدين.. وانطلق ليقاتل بين يديه.

وأما أخوه محمد بن الهادي فإنه لما رأى تخاذل القوم عن

نصرة أبيه جعل يخاطب أباه قائلاً:

- يا أبي تخلص من هذا الموضع .. فإني أرى الأمر قد اشتد عليك وعلى أصحابك.

كان الإمام يتلفت يميناً وشمالاً باحثاً عن منفذ لأصحابه .. فلما رأى السيوف تنهشهم، والرماح تنالهم، وأصحابه يقونه بأنفسهم، لم يجد مفراً من قتالهم .. فسلَّ حسامه وهو في أشد الغضب .. وثنى قدمه وأراد أن يترجل عن فرسه ليقاتل مع أصحابه .. ولكن جماعة من الطبرية تلقفوه ومنعوه من النزول.

الإمام الهادي:اتركوني يا قوم أنزل فأواسيكم بنفسي.

أحدهم: نسألك بالله أن لا تنزل .. يا رجل إن هلاكك هلاك الإسلام .. وإن بقيت رجونا أن يعز الله بك الحق ويظهر بك الدين .. أما نحن فإن متنا فقد رزقنا الله ما كنا نطلب فامض لعل الله أن يخلصك.

وأبى الإمام إلاّ أن يتقدم أصحابه ويقاتل معهم.. وجعل محمد بن الهادي (ع) يناوشهم في الطرف الآخر ليفرقهم عن أبيه ويستطرد لهم.

ولما بدأت رماحهم تنال الإمام الهادي (ع) أغمد سيفه وجعل يذب عن نفسه بسوطه..

فأقبل نحو الإمام رجل صاحب حربة فطعن الإمام بها.. فالتفت إليه فضربه الإمام على رمحه فكسره ثم رمى به في وجهه.

فصاح أحد خدم الإمام: يا سيدي سل بعض سيفك!!

الإمام الهادي: والله لا كان ذلك أبداً إلا وأرويه.. وإني والله أخشى أن يكون ذلك غضباً لنفسي.

كان الإمام الهادي (ع) قد اشتدت جراحه .. ولذلك خاف إن قاتل القوم أن يكون قتاله غضباً لنفسه لا لله عزّ وجلّ.

(٢)

كان محمد بن الهادي (ع) يستطرد للقوم ليبعدهم عن أبيه ومعه محمد بن سعيد .. فتبعه جمع كثيف من خيل آل طريف .. وطالت المطاردة فكان يتوقف لقتالهم فإذا كثروا عليه وعلى أصحابه استطرد لهم.

لم يكن محمد بن الهادي وأصحابه بذوي خبرة بالبلاد التي يقاتلون عليها .. فجعل آل طريف يحيزونهم إلى جهة معينة .. وفجأة تردت بعض الخيل مع فرسانها من شاهق رفيع وصارت تطير في الهواء .. لقد كان هناك هوة سحيقة تفصل بين جبلين لم يدركها أصحاب محمد بن الهادي فمنهم من بلغ الجبل الآخر ومنهم من سقط في الهوة.

وكان محمد بن الهادي على خيل ضعيف في مؤخرة أصحابه ليدفع عنهم من يهاجمهم من آل طريف .. فلما رأى ما حل بأصحابه جرد حسامه وتوقف على طرف الهاوية وجعلها من خلفه والقوم من أمامه وأقبل نحو المطاردين .. وبدأ يقاتل

عن نفسه ومن بقي معه من أصحابه ببسالة.

كان هناك من يرقب هذا المشهد بإعجاب..

كان ذلك هو ابن الضحاك .. والذي كان قد خرج من خيوان وانظم إلى صفوف آل طريف .. وطال البراز ..

وأبدى محمد بن الهادي (ع) ومحمد بن سعيد وأصحابهم بسالة نادرة .. ولكن حجراً أتت من جهة القوم لتستقر في رأس محمد بن الهادي (ع) .. فسقط من على فرسه مغشياً عليه .. وتسابق القوم نحو الجسد الساقط من على صهوة الجواد .. كل يريد أن يغرز فيه سلاحه.. رماح وسيوف وأحجار وقلوب تلتهب حقداً .. وعيون تلمع شرراً وشهباً .. وتحققت الوفاة ولم يبق إلا تمزيق الجسد الطاهر .. فقد صار طريح الأرض فاقداً للوعي.

وفجأة وقف أمامهم جسدٌ حجب السهام والسيوف عن مرادها .. وعلا صوت جعل أجساد المهاجمين تتوقف في مكانها:

ابن الضحاك: من مس الرجل بشيء قاتلته .. كفوا عن الرجل ..

كان مع ابن الضحاك بعض الرجال من قبيلته لذلك لم يجرؤ أحد على مخالفته.

أحد المهاجمين: وما شأنك يا ابن الضحاك؟! .. ألم تكن أحرصنا على لحاقه وقتله؟!

ابن الضحاك: نعم .. ولكن الرجل قد سقط مغمىً عليه وهو أسيري.

وفاق محمد بن الهادي (ع) من غيبوبته ليري نفسه مشدوداً بالحبال على بغلة أمام قافلة من الجمال .. على كل جمل رجلان.

وعرف من وجوه المحمولين على الجمال أنهم أصحابه .. وأنه قد أُسر ولكن إلى أين؟ لا يدري...!

جعل يترقب الطريق .. فعرف أنها طريق صنعاء.

ولم تمض ساعات حتى كانوا في ميدان صنعاء .. واكتضت الشوارع بالناس .. وبدأت مراسيم احتفالات النصر .. فقد جعلت الجنود تطوف بالأسرى في شوارع صنعاء .. وفي مقدمتهم محمد بن الهادي.. بينما كانت كلمات السخرية والسباب والشتائم والرمي بالأذى تنالهم من كل جانب.. وكانت الأهازيج والأفراح تقام في كل شارع.

لم يكن محمد بن الهادي (ع) ليلتفت إلى شيء من هذا .. فقد جعل يرتل آي القرآن ويكثر من التسبيح والإستغفار .. ليس من شيء يشغله إلا مصير الإمام الهادي (ع) وأصحابه .. أما حاله فقد كان يرى أنه قد بلغ أسمى مراده .. وهو أن يتجرع الآلام في سبيل إعلاء راية الدين وحرب المستبدين.

(٣)

انسحب الإمام الهادي (ع) من المعركة بمن بقي معه من أصحابه وتوجه إلى حصن وَرْوَرْ الواقع في بلاد الجوف ليعالج

جراحه وجراح أصحابه.. بعد أن قتل من جيش الإمام الهادي (ع) خياره.. وأسروا ولده وجمعاً من أصحابه .. وصار الإمام الهادي (ع) في قلة من الناس لا يجد له ناصراً ولا معيناً.

ولكن هيهات للأسد أن يتضعضع وهو يعلم أنه يمضي في سبيل إعلاء كلمة الله .. يرى أن النصر لا ينال بكثرة الجيش .. وإنما بالإيمان والثبات.

فكتب رسائل إلى سائر القبائل يستنهضهم على الحرب والقتال .. وجعل لا يكف عن إرشاد الناس .. ووعظهم وحثهم على الجهاد .. وجعل الدعام يراسل إبراهيم بن خلف في إخراج الأسرى وافتدائهم .. فلما استجاب له ابن خلف اشترط عليه خروج الإمام الهادي (ع) من وَرْوَرْ وعودته إلى صعدة..

فأقبل الدعام على الإمام الهادي (ع) ليخبره بالأمر..

الدعام: يا مولاي لقد اشترط ابن خلف لإخراج ولدكم ومن معه من الأسرى خروجكم من وَرْوَرْ وعودتكم إلى صعدة .. والكف عن تحريض الناس على قتاله.

الإمام الهادي: هيهات يا دعام أن أسالم أعداء الله وفيّ عين تطرف .. بل أبقى في وَرْوَرْ .. وإن وجدت لي ناصراً قاتلته بإذن الله وعونه.

يئس الدعام من الإمام الهادي أن يلين أو يتراجع عن موقفه.. ولكنه فكر أن يستثير مشاعره وحبه لولده لعله يلين .. فكتب إلى إبراهيم بن خلف أن يطلب من محمد بن الهادي (ع) أن يكتب إلى والده لعله يلين أو يرجع عن موقفه.

فلما قرأ إبراهيم بن خلف رسالة الدعام أمر بإحضار محمد بن سعيد .. وكان رفيقاً لمحمد بن الهادي (ع) في سجنه .. فلما حضر بين يديه بادره إبن خلف بالسؤال قائلاً:

- إلى متى يصبر صاحبك هذا على السجن وهو الأمير؟ ..

وكيف يحتمل العيش في الأسر؟!

محمد بن سعيد: إنه أشدنا صبراً وجلداً على الأمر فقد شغلته عبادته عن التفكير في الخروج.

إبراهيم بن خلف: إذاً نثقل عليه قيوده أو يكتب إلى أبيه أن يرجع إلى صعدة ويكف عنا.

محمد بن سعيد: أنا أبلغه فأنظر ما يكون جوابه.

وعاد محمد بن سعيد إلى سجنه .. فلما فرغ محمد بن الهادي(ع) من صلاته أخبره بالأمر .. فاطرق محمد بن الهادي(ع) ببصره إلى الأرض قليلاً .. ثم رفع رأسه وقال: أبلغه إن طلبك مرة ثانية ما تسمعه مني:

وأبيك يا ابن العبد أن قيودكم ... لأقل في عيني من اليوغاء

فأربع عليك فليس شيمة مثلنا ... جزع النفوس بمعضل البلواء

أعليّ تجلب بالقيود وإنما ... هوى الحياة مخالف آبائي

حَسِبْتَني هَلَعَ الجَنَان وإنما ... أرضي تسيل عليكم وسمائي

بالصبر إن خلائقي محمودة وكذاك كان الغر من قدمائي
وبصيرتي في الدين يحجب زلل الطباع إن أردتُ منائي
لو شئتُ أن لا تعتريني محنةٌ لأقمت بين مطارحي ووِطائي
ولَما قصدت الظالمين بمهجتي وصليت حر ضرامها يضيائي
فعلي ليس تجوز خطة باطل وعلى سواي فهوِّلوا أعدائي

فلما بلغ ابن خلف مقالة محمد بن الهادي .. توعده غيظاً وغضباً .. فأمر بتثقيل القيود وتضييق الحلقات على محمد بن الهادي.

(٤)

ومضى شهر رحب ثم شعبان.. ومحمد بن الهادي لا يزال في سجنه..ووصلت رسل الإمام الهادي (ع) إلى ولده محمد ومن معه من أصحابه تواسيهم وتذهب شيئاً من هم قلوبهم .. فلما نظر محمد بن الهادي في كتاب أبيه فإذا مطلعه:

ألا أبلغا إبني وإن كان نائياً أخو الدين والتقوى وذو البِرِّ

وذا العرف والإحسان في كل حالة ومن ذكره عال على كل ما ذِكْرِ
ومن طاب مولوداً ومن طاب يافعاً ومن فضله قد شاع في البر والبحر
فقولا لـه يقرأ عليك مكرراً أبوك سلاماً دائماً عدد القطر
ويشكو إليك الله يعلم وحشة لها حرق تأوي إلى القلب والسحر
فيارب عجل يا كريم خلاصه وجمل به أمري واشدد به أزري
أبا القاسم تفديك نفسي من الردى ومن كل ما سوء ومن كل ما شر
أبا قاسم بالله لو كنت قربكم لدافعت عنك الناكثين ذوي الغدر
وإن كان في آبائك الشم أسوة لمثلك يا ابن الطاهرين ذوي القدر
وهذا شعار الصالحين ذوي النهى ذوي البر والتقوى السمادعة الغر
فقد نالهم بالطّفّ قتلٌ وشدةٌ ونالهم أمر يجل عن الأسر
فأوصيك بالتقوى وبالدين والهدى وإيثار أمر الله في السر والجهر
وأن لا تُرى للدهر يوماً مطأطئاً ولا تخضعن للدهر والزم على الصبر
عليك سلام الله ما ذر شارق وما غردت ورقاء في سدف الفجر
ولا زلت في عيش رضيٍّ وغبطةٍ وفي نعم تغدو وفي نعم تسري

فلما انتهى من قراءة الكتاب هملت عيناه بالدموع ..

وأشرق وجهه بفرح غامر ..

ثم قال لمحمد بن سعيد: أكتب يا محمد:

قل للإمام ذي الرشاد الأفضل ... والقائم الهادي لخير السُّبُل

وابن رسول الله ذي التفضل ... والمبرم الحكم بحقٍّ مُنزَل

والكهف للمولى وغيث المرمل ... يحيى أمير المؤمنين المكمل

كل خصال الخير عند الخطل ... سراج دين الله مأوى النيل

إني على عهدكم لم أبدل ... ولا وهنت للحديد المثقل

ولا جزعت فعلة المكبل ... ولا ركنت لدواعي الزلل

ولا دعوت صاحبي بالعجل ... بل همتي فاقت عظام الأجل

والصبر خُلقي ثابت لم يرحل ... كيف وهذا في الجهاد عملي

وشيمتي وهمتي وأملي ... وفعل آبائي الكرام المثل

القتل في الله كصافي العسل ... عندي وأحليمن رحيق السلسل

أبي رسول الله زين الرسل ... أسمو إذا أسمو بفخري بعلي

* * *

وتنكر الزمان لأهل المعروف .. وأقبلت الدنيا على أهل الفساد بزخرفها ومتاعها .. فغرتهم فتمادوا في فجورهم .. ولكن صلابة أهل الحق وثقتهم بربهم وبقرب فرجه ونصره جعلت الإمام الهادي (ع) يثبت في وَرْوَرْ كأنه جبل من الجبال الرواسي..

وبينما هو في مجلسه أقبل عليه رسول من أهله بالمدينة .. فاستبشر بقدومه وأفسح له في مجلسه وجعل يحدثه طويلاً عن أهله وبني عمومته.

الإمام الهادي: فما أقبل بك علينا في هذه الأيام؟

الرجل: يا مولاي إني رسول أهلك إليك .. يقولون لك خذ حذرك فإن جيش بني العباس قد وصل مكة بقيادة الحسين بن جفتم .. وليس لهم من وجهة إلا اليمن.

فلما سمع الإمام الهادي (ع) هذا الخبر أطرق يفكر لا يدري

ما يصنع؟!! .. فأهله وحريمه في صعدة .. وولده وأصحابه أسارى في صنعاء .. والناس قد تفرقوا عنه ..

فلم ير من حل أمامه سوى العودة إلى صعدة قبل وصول حسين بن جفتم .. فجمع أنصاره وتوجه إلى صعدة وما إن وصل صعدة حتى أتته الأخبار أن وائلة قد قطعت الطريق فخرج لتأديبهم ثم عاد إلى صعدة ..

وفي هذا العام[1] كان قد انتشر الفقر وحلت بالناس مجاعة حتى أكل الناس بعضهم بعضاً .. وافتتن الناس ولم يصبر على دينه إلا أهل الورع والتقوى ..

وكباقي البلاد اليمانية ذاق أهل نجران مرارة الفقر والحاجة .. وخاف محمد بن عبيد الله أن يفتتن بعضهم ببعض لقلة دينهم وورعهم .. فمنعهم من حمل السلاح ..

(٥)

لم يكد الإمام الهادي (ع) يستقر في صعدة حتى أقبلت

---

[1] رحمه الله رحمة عفر الله له غفر الله لهما كان ذلك في سنة ٣٠٢هـ تقريباً رضي الله عنه

رسل الحكمي –أمير تهامة– يشكو له فساد البلاد ويطلب منه القدوم عليه.. وأعطاه العهود والمواثيق على النصرة والطاعة له .. فأرسل الإمام الهادي (ع) إلى بني الحارث وخولان فجمع منهم ثمانمائة راجل ومائة فارس .. وتوجه بهم نحو تهامة .. فلما أشرف على بلاد الحكمي استقبلته رسل الحكمي ومعهم الأعلاف والبقر والغنم ضيافة للهادي فسأل الإمام الهادي (ع) عن مصدرها .. فأخبر أن الحكمي جمعها من أهل القرى.. فأرسل عليهم وأعادها إليهم وعوض من أتلف شيئاً عليه .. ثم رد رسل الحكمي بالعتاب.

فأقبل الناس من كل بلد يريدون معرفة هذا الرجل الذي ما سمعوا بمثل عدله .. فلما عرف الحكمي إقبال الناس على الإمام الهادي (ع) تحركت نوازع الشر في نفسه .. فجمع جنده وأهل طاعته وخرج في جيش كثيف قوامه أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل فلم يشعر الإمام الهادي (ع) ومن معه إلا والقوم يقفون في وجوههم..

هنا أدرك الإمام الهادي (ع) أن القوم قد نكثوا بيعتهم..

فأعد معسكره لخوض المعركة.. ولكن القلة التي مع الإمام الهادي (ع) لم تستطع أن تثبت لكثرة جيش الحكمي فقد تراجعت الميسرة فأحيط بالإمام الهادي (ع) وميمنته فثبت الإمام الهادي (ع) في مكانه وتحلق حوله خلص أصحابه فقُتل منهم خيارهم .. فجعل الطبرية يصنعون الحلقة تلو الحلقة فلما رآهم الإمام الهادي (ع) قد أثخنوا بالجراح .. جعل ينفس عنهم كربتهم بنفسه ..

فتقدم الإمام الهادي (ع) نحو جيش الحكمي وهو يصيح في أصحابه: (احملوا على هؤلاء الكلاب) .. فهابه القوم وولوا منهزمين..

وعلا صوتٌ من أطراف المعسكر: (لقد عطف عليكم أصحاب الهادي).. فانهزم جيش الحكمي.

وأقبل الإمام في مقدمة مائتين من جيشه يطاردون الحكمي حتى أدخلوه قريته .. وأمر الإمام الهادي (ع) أصحابه بالتراجع وكره أن يقاتل في تهامة .. فارتحل عائداً إلى صعدة.

وكان هناك رجل من أصحاب تهامة يسمى الغطريف بن

محمد الأشج وقع النـزاع بينه وبين ابن عمٍ له يسمى عبد الله بن الخطاب الحكمي .. فخرج عبد الله مع جمع من الجيش هارباً من ابن عمه وتوجه إلى صعدة لينـزل على الإمام الهادي (عليه السلام).

الفصل الثاني

(١)

بعد أن رجع الإمام الهادي (ع) من تهامة استقر في صعدة وجعل يسير في الناس سيرة حسنة.. فكان يجلس للناس ليقضي ويحكم بينهم .. ويخرج ليصلي بالناس جميع الفروض .. ثم يأمر رجلاً من أصحابه بعد كل صلاة أن ينادي على أهل الحاجات والمظالم فلا يبقى صاحب حاجة إلا وتُقضى لـه حاجته .. ولا مظلوم إلا وتُرفع عنه ظلامته.

ثم يمر الإمام على من في المسجد من المرضى والفقراء والمحتاجين فيتفقد أحوالهم.. ويتفقد أصحابه وجيرانه فيزور مريضهم ويتعهد من غاب عن مجلسه.

وقد خرج ذات يوم فلم يحضر إليه أحد فجعل رأسه يخفق

من أثر النعاس ..لكثرة صلاته بالليل فقال له بعض أصحابه:

- هلا دخلت لتنام فلا أظن أحداً يحضر في هذا اليوم!

وانصرف أصحابه لقضاء حوائجهم .. وعند عودتهم مروا من ذلك المكان فإذا بالإمام جالس على حالته التي تركوه فيها.

فقال له أحدهم: ما أخرجك يا إمام بعد أن كنت قد عزمت على أن تدخل دارك؟

الإمام: لم أجسر أن أنام .. وقلت عسى أن ينتاب الباب مظلوم فيؤاخذني لله بحقه .. ووليت راجعاً كما دخلت.

* * *

كان صيت الإمام قد تجاوز اليمن وعرف الناس الكثير والكثير عن عدل الإمام وفضله وعلمه وزهده.. وكان أبو الحسن الهمداني أحد رجال الفقه المعروفين، كان قد جمع بين الفقه والتجارة ووصلت إليه الكثير من آثار الإمام الهادي وأخباره فتقدم بتجارته على اليمن وتوجه بها نحو صعدة

باحثاً عن الإمام الهادي.. وفي الطريق قابل رجلاً من أهل صعدة فاستوقفه يريد التحدث إليه..

أبو الحسن:يا رجل.. إني غريب عن هذه الديار.. وأنا صاحب تجارة قد قصدت اليمن وحملت ما أتجر فيه إلى هنا ابتغاء لرؤية يحيى بن الحسين لما سمعت عن علمه وعدله.. فهل لك أن تدلني عليه وتخبرني كيف أصل إليه؟ ومتى أصل؟ وبمن أتوسل في هذه الباب؟

الرجل: لا عليك يا رجل.. إن الأمر أهون مما تقدر.. تراه الساعة إذا دخل الجامع للصلاة بالناس.. فإنه يصلي بالناس الصلوات كلها.

وخرج الإمام الهادي (ع) إلى المسجد فصلى بالناس.. فلما فرغ من صلاته.. مشى في المسجد إلى بعض المرضى في ناحية منه فعادهم وتفقد أحوالهم بنفسه.. ثم مشى نحو السوق يتفقد التجار .. فكان إذا رأى منكراً غيره.. ومشى في السوق ووعظ قوماً وزجرهم عن بعض المنكرات التي رآها.. ثم عاد

إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه من داره للناس.. كل ذلك وأبو الحسن الهمداني يتبع الإمام الهادي ويتأمله في دهشة وإعجاب..

وتقدم أبو الحسن إلى مجلس الإمام الهادي (ع) فسلم عليه.. فرد عليه السلام وأجلسه إلى جواره.. وسأله عن حاله وعن سبب مقدمه..

أبو الحسن: أنا تاجر قدمت إلى هنا للتجارة ووردت على هذا المكان تبركاً بالنظر إليكم والإستفادة من علمكم،ولقد رأيتك أيها الإمام أول ما رأيتك وأنت تطوف على المرضى في المسجد تعودهم وتمشي في السوق فعجبت من ذلك!!

الإمام الهادي: هكذا كان آبائي يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وأنت إنما عهدت الجبابرة والظلمة.

ومن خلال تلك المقابلة عرف الإمام الهادي (ع) أن الرجل من أهل العلم فأكرمه وأنِس بمصاحبته.. وتعرف أبو الحسن على عدل الإمام وزهده، فلم يكن يغيب عن مجلس الإمام..

فلما كان اليوم الذي هو يوم المظالم رأى أبو الحسن الإمام الهادي (ع) وقد جمع الأمراء والقواد والرجالة وجعلهم وقوفاً بين يديه.. وهو ينظر في المرافعات ويسمع الظلامات ويفصل الأمور.. وأقبل رجل يدعي على رجل حقاً وانكره المدعى عليه..

الإمام: هل لك من بينة على دعواك أيها الرجل؟

الرجل: لي شهود يشهدون على ذلك وقد أحضرتهم.

وتقدم الشهود فحلّفهم الإمام الهادي(ع) على أن يقولوا الصدق وأن لا يشهدوا إلا بالحق.

ولما فصل الإمام في القضية وانصرف الناس.. اقترب أبو الحسن من الإمام وقال له:

- أيها الإمام لقد رأيتك حلّفت الشهود وما أعلم أحداً من أهل العلم قد قال بذلك؟!.

الإمام: هذا رأيي.. أنا أرى تحليف الشهود احتياطاً عند بعض

التهمة .. وما تنكر من هذا؟ .. هذا قول طاووس من التابعين .. وقد قال الله تعالى: {فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا}.

فخرج أبو الحسن وقد أصابته الدهشة وبلغ به الاعجاب مبلغه وجعل يحدث نفسه ويقول:

تالله ما رأيت مثل اليوم.. فقد شاهدت لهذا الرجل هيبة عظيمة.. فكأني شاهدت رجلاً غير من كنت شاهدته.. ولقد استفدت من تلك المسألة، مذهبه وقول من قال به من التابعين والدليل عليه ولم أكن قد عرفت شيئاً قبل ذلك...!

وأقبلت الوفود على الإمام الهادي (ع) من سائر البلاد الإسلامية لما سمعوا من علمه وعدله وفضله.. وبقي الإمام الهادي (ع) في مدينة صعدة لا يخرج منها إلا لمهام قريبة.

(٢)

وفي عام ٢٩٤هـ أقبل عليه عالم مصري .. فاعترضه بعض

سفهاء من بني الحارث ويام وقتلوه .. فأرسل الإمام الهادي(ع) يطلب منهم تسليم القتلة .. فاجتمعت قبيلة يام مع قبيلة بني الحارث .. واتفقوا على عدم تسليمهم.. فتوجه الإمام الهادي(ع) لقتالهم.

وكان هناك ثأر عند اليامیین لوادعة وربيعة.. فأملوا أن يقتلوهم إذا هم خرجوا مع الإمام الهادي (ع).. لذلك استقبل ابن بسطام وأصحابه جيش الإمام الهادي(ع) وانضموا إليهم وتوجهوا معهم نحو قبيلة يام

وعلم الإمام الهادي (ع) بذلك فتوقف على مقربة من ديار اليامیین وجعل يراسلهم ويرجو بذلك تجنب الحرب فبقي على ذلك الحال سبعة أيام .. حتى أجابوه.

ثم حمل معه بعض من كثر منه الفساد والشكوى أمثال علي بن ربيعة المداني .. وألزم اليامیین تسليم دية المصري ألف دينار .. فلما علم ابن بسطام أن الإمام الهادي (ع) قد صالح اليامیین يئس من النَّيْل منهم فجمع بعض أصحابه وقال لهم:

- إن الهادي قد صالح اليامیین وإني أخشى إن تركهم الهادي

ولم يحاربهم أن لا ننال ثأرنا منهم أبداً

ابن حميد: فما ترى أن نفعل فإن الهادي راحل صباح الغد؟

ابن بسطام: نرسل بعض الجند لعزو قرية راحة فإذا نشب القتال فيها وعلم الهادي بالأمر تقدم بالجيش للصلح بين المتنازعين .. فإذا نزل الجيش تحرشنا باليامين من أهل راحة .. ودخل العساكر في حرب مع أهل راحة فلا يجد الهادي أمامه إلا القتال.

وبالفعل انطلق جمعٌ من السفهاء نحو قرية راحة وأشعلوا نار الفتنة واشتد القتال بينهم.

وعلم الإمام الهادي (ع) بالقتال .. فمنع الناس من التقدم إلى راحة وأرسل إلى ولده أحمد وجمع له بعض رجال قبائل خولان وأمره بالتوجه إلى راحة للفصل بين المتنازعين.

❊ ❊ ❊

وبينما الإمام الهادي (ع) مشغول بهذا الأمر كان دعاة القرامطة ينتشرون في القرى النائية والبعيدة لنشر دعوتهم ..

فأقبل عليه محمد بن عبيد الله وأخبره الخبر.

الإمام الهادي: اذهب فتتبعهم في كل قرية وائتني بهم ..

ولم تمض أيام حتى عاد محمد بن عبيد الله مع أولاده وكلٌ منهم قد أتى بجماعة من دعاة القرامطة ..

وأقبل أحمد بن الهادي (ع) ومعه بعض من أثار الفتنة من اليامين والوادعيين واستقر أمر البلاد.

فأمر الإمام الهادي (ع) محمد بن أبي سورة مع جمع من الخولانيين بالبقاء مع محمد بن عبيد الله .. وحمل الإمام الهادي(ع) من جمع من المفسدين وسار بهم إلى صعدة.

وفي هذه الأيام انتشرت الدعوة القرمطية في أنحاء البلاد اليمانية .. فجعل محمد بن عبيد الله يتتبعهم في أنحاء بلاد نجران فيرسل الكتيبة تلو الكتيبة لمتابعتهم .. فأبلى ولداه علي والقاسم بلاءً حسناً في هذه المعارك.

(٣)

وبعد رمضان سنة ٢٩٤هـ طلب عبد الله بن الخطاب الحكمي من الإمام الهادي (ع) أن يمده بالجيش ليعود إلى تهامة .. فأرسل الإمام الهادي (ع) في طلب محمد بن أبي سورة ومعه محمد بن الأربد.. ومحمد بن الهيثم.. وتبعهم محمد بن عبد الملك اليامي وابن بسطام .. فقد كان كلٌ له عند الإمام الهادي (ع) حاجة يود قضاءها فلما نزلوا على الإمام الهادي (ع) .. أكرمهم وأحسن إليهم.

محمد بن عبد الملك: يا مولاي لقد طال سجن أصحابنا ممن قاتلوا الوادعيين ونحن نازلون عند حكمك.

الإمام الهادي: يا محمد إن للوادعيين عندكم سبعة عشر قتيلاً فكيف أطلق أصحابك ..

محمد بن عبد الملك: إرضِ الوادعيين منا بما شئت.

الإمام الهادي: لولا أنها كانت فتنة لما كان لهم إلا السيف .. ولكن فليدفع قومك للوادعيين سبعة عشر دية وخذ

أصحابك معك.

ابن بسطام: يا مولاي إنك قد أجبت لمحمد طلبه وأنا لي عندك حاجة.

الإمام الهادي: ما هي يا ابن بسطام؟

ابن بسطام: أن تهبني علي بن الربيع وبني عمي ممن كان قد اتبع مذهب القرامطة.

الإمام الهادي: عجباً منك يا ابن بسطام ألست تعلم أن ابن الربيع ممن يفسد في الأرض ويخوض في دماء المسلمين بغير حق .. وأنه قتل رجلاً من الأحلاف وهم يطالبون بإقامة الحد عليه ولكن أهبك بني عمك فإني أرجو أن يكون قد صلح أمرهم.

* * *

وتكلم محمد بن الهيثم .. وأحمد بن الأربد -وكانا من أكثر الناس حباً للهادي- فأعطاهم من طلبوا .. ممن كان قد

أخذهم الإمام الهادي (ع) من أهل نجران ممن عرفوا بالفساد .. وصادف وصولهم إلى نجران عودة الحجيج ومعهم أخبار من مكة بأن بني العباس قد أرسلوا والياً على اليمن على رأس جيش عظيم .. وأرسل معه على قيادة الجيش رجل من بني عبد المدان يسمى حسان بن إبراهيم بن الربيع -ابن عم علي بن الربيع.

فرفعت بنو الحارث رؤوسها والتقت فيما بينها .. فكتبوا الرسائل وأعدوا الوفود إلى مكة لمقابلة قائد جيش المسـوّدة من بني العباس .. فشكوا إليه أحوالهم وأظهروا له أن الإمام الهادي (ع) قد اعتدى عليهم .. ورجوه أن يتقدم إلى بلادهم .. فوعدهم النصر وأحسن إليهم ثم صرفهم إلى بلادهم وكتب رسالة إليهم: «إن كنتم لنا على الوفاء فأخرجوا والي الهادي من بلدكم.. وانقضوا بيعته .. فإذا علمت ذلك منكم أقبلت إلى بلدكم».

فلما وصلتهم الرسالة اجتمعوا للتشاور في الأمر.

ابن بسطام: هذه رسالة قائد الجيش العباسي إليكم فما ترون أن نفعل؟

ابن حميد: إني أرى الرجل جادٌ فيما وعد فأجيبوه إلى ما طلب ينفذ إليكم جيشه.

أحد مشائخ يام: يا ابن حميد لا تعجل الشر فإني أخاف أن يخلفكم الرجل وعده ويأتيكم الهادي في جمعه فينال منكم.

ابن بسطام: فما ترى أن نفعل؟

الشيخ: نبني حصوننا ونعد أنفسنا لاستقبال المسوّدة.. فإن وفى لنا وإلا كنا قد أعدينا حصوننا فإذا أقبل الهادي إلينا تحصنا بها.

ابن بسطام: الرأي ما رأيت .. وسوف نعلن في الناس أنا سنأخذ محمد بن عبيد الله أسيراً حتى يأتينا الهادي بعلي بن الربيع.

ابن حميد: ما أعجب أمرك يا ابن بسطام !! .. ما هذا الإهتمام

بأمر علي بن الربيع وكنت أشد الناس له كراهة؟!

ابن بسطام: بل ما أكثر غفلتك يا ابن حميد أما علمت أن ابن الربيع أشد الناس عداوة للهادي .. فلو أخرجه الهادي لكفانا شر ما نحن فيه .. وقاد الناس لحرب الهادي .. أما اليوم فإنما أهتم به لعل ابن عمه الذي في جيش بني العباس إذا علم منا ذلك حث قائد الجيش على الإسراع إلينا .. وأرى أن نكتب إليه فنخبوه بما نزل بابن عمه من فعل الهادي.

وانصرف مشائخ القوم وقد أجمع أمرهم على بناء حصونهم وكثر الكلام بين الناس وجعل بنو الحارث يتوعدون محمد بن عبيد الله وأولاده .. لا يشغلهم عن إنفاذ وعيدهم وحرب محمد بن عبيد الله إلا انشغالهم
ببناء حصونهم.

(٤)

أخذ ابن بسطام يحصن ميناس .. ويعدها للحرب.. وكان ابن بسطام لا يألو جهداً في المكر والخداع.. فكتب إلى محمد بن عبيد الله:

((لا يريبك ما أنا فيه من التحصين والإعداد فإنما أعدها لينـزل بها الإمام الهادي أعزه الله إذا قدم لحرب المسوّدة))...

فلما رأى محمد بن عبيد الله إجماع القوم على حربه كتب إلى الإمام الهادي (ع) يطلب منه النجدة .. وكتب إليه قصيدة يشرح له فيها حاله:

لاح الشيب بمفرقي وبراسي ... وبعارضي فعاد كالقرطاسِ

يا ابن الحسين تحالفت (حارٌ) ... أن يقتلونا يابني العباسِ

زعموا بأنك قد خُذلت بصعدة ... وشغلت بالعبد الذليل الخاسيِ

يا ابن الحسين تقاسموا أموالنا ... وخيولنا فأفرج بصولة قاسيِ

عجل بنصرك يا ابن أكـرم ... فافكك عشيرك من يد الحُبَّاسِ

إنَّا ببئر لا خلاص لمن بها ... منها فينجو سالماً بالراسِ

فيها الأراقم والأفاعي كلها يسقينني سمَّ الحتوفِ بكاسِ

نجران.. نجران فعجل هَلْكَها ماذا حوت فيها من الأنجاسِ

يا ابن الحسين تركتنا غرضاً بها نُرمى فنبل القوم غير خِسَاسِ

إنا بأرض لا يرى فيها لنا إلا عدواً مرصداً لمراسِ

عجل بقتلتك التي أوعدتهم في فيلقٍ عدد الحصى رجَّاسِ

يا ابن الحسين أَبِدْ عدوك لتريحنا مما نزال نقاسي

لا خير في (حارٍ) ولا أحلافها (يامٍ) فإنهم من النسناسِ

لا يشكرون صنائعاً أوليتهم بل يكفرون وكلهم متناسي

كافِي الإله قبائلاً من شاكرٍ وثقيف والأحلاف أهل الباسِ

الناصرين لأهل بيت نبيهم أهل التقى والود والإيناسِ

أيضاً ووادعة الكرام ذوي النهى ليسوا لدى الهيجاء بالخناسِ

لكنهم آساد كل كريهة أبناء كل سميدعٍ دواسِ

فإنهض نصرت على العدى وتحيلها جدباً يسيف الباسِ

لا زلتُ مَعْكَ مناصراً حتى نوارى في ثرى الأرماسِ

ونكون دونك للحوادث والبلا ونقيك بالابدان والأنفاسِ

نبني كأبنية بناها جدنا يوم الفرات رفيعة الآساسِ

فأجابه الإمام الهادي (ع) بما هدأ من روعه وأذهب هَمَّ قلبه وأخبره أنه مقبل عليه ولكنه ينظر في أمر المسوّدة وأين يتوجه جيشهم .. وأمره بالثبات والصبر وأن يأخذ من بني الحارث وأهل نجران نصف جباية العنب .. ويدفع معائش العساكر النازلين معه في نجران وأن لا يتوانى في ذلك.

فلما علم بنو الحارث بذلك تكبروا وتعالوا .. وأقبل ابن بسطام على ابن حميد يقول له:

- إنما يريد الهادي بذلك إذلال بني الحارث وهوانها فحذار أن تقبل ذلك.

ابن حميد: لن ترى إلا ما يسرك..

وماهي إلا ساعات حتى أقبل ابن حميد على محمد بن عبيد الله

ابن حميد: إن كنت تريد ما طلبت فأرسل خدمك لاستلامه ..

* * *

بقي محمد بن عبيد الله أياماً ثم أرسل خدمه يطلبون ذلك من بني الحارث .. فأجمع بنو الحارث على قتلهم فكتب الله لهم النجاة ..

وأقبل ابن حميد مع بعض وجوه بني الحارث إلى محمد بن عبيد الله ليقتلوا في نفسه أي أمل في صلاحهم.

ابن حميد: اسمع يا هذا إن بني الحارث لن يدفعوا لا قليلاً ولا كثيراً مما طلبت وإنك حبست علي بن الربيع فأطلقه وإلا فأنت به.

محمد بن عبيد الله: كذبت يا ابن حميد فأنت أجبن من أن تفعل شيئاً كهذا .. أخرج أيها الناكث الخائن.

واشتد الخصام واشتعلت نار الأحقاد وأضمر بنو الحارث الشّرَ لمحمد بن عبيد الله..

فدعا محمد بن عبيد الله ولده وجعل يخاطبه قائلاً:

- اسمع يا علي إني أرى القوم يريدون الفتنة وأخاف أن يتأخر علينا الإمام الهادي أبقاه الله فاخرج إليه واحمل هذه الرسالة إليه .. وكان فيها:

أرى تحت الرماد وميض نارٍ وأوشك أن يكون لها ضرام

فإن النار بالزندين توري وإن الحرب يبعثها الكلام

فلم تمض أيام حتى أقبل الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي (ع) في مقدمة جيش أبيه على رأس ثلاثمائة جندي.

وبعد أيام نزل الإمام الهادي (ع) قرية الحصن .. فأقبلت قبيلة يام إلى الاعتذار والطاعة .. وتفرق بنو الحارث إلى الجبال وبطون الوديان .. فأمر الإمام الهادي (ع) بمتابعتهم .. وأخرج الكتائب في طلبهم .. فجمع ابن بسطام بقيةً من سفهاء الوادعيين وأعطاهم مالاً عظيماً وطلب منهم الإغارة على اليامين أراد بذلك أن يشغل الإمام الهادي (ع) عن مطاردة بني الحارث .. فأغار الوادعيون على بعض

اليامين .. ثم أرسل جماعة إلى من في جيش الإمام الهادي (ع) من اليامين .. وأخبرهم بما فعله الوادعيون .. وكادت الفتنة أن تقع بين همدان .. ولكن الله بمنه لطف. بس بس

فقد استدعى الإمام وجهاء القوم من الوادعيين واليامين .. وأطفأ نار الفتنة التي أراد ابن بسطام إشعالها .. واستمر الإمام الهادي (ع) في مطاردة بني الحارث .. فخاف ابن بسطام أن يؤدب الإمام الهادي (ع) بني الحارث جزاء أفعالهم .. فأمر ابن بسطام صاحبه ابن حميد أن يرحل ويغيب عن البلاد ووعد بأنه سيستأمن لبني الحارث ..

ثم أقبل ابن بسطام إلى الإمام الهادي (ع) بوجوه بني الحارث .. وطلب لهم الأمان فأمنهم الإمام الهادي (ع) .. وَضَمَّنَ بعضهم بعضاً .. وأخذ عليهم العهود .. وأمرهم أن يعطوا ما عندهم من الزكاة.

وجعل ابن بسطام يستأمن لبني الحارث قبيلة قبيلة وظهر أمره وصار له شأن في الناس.

واجتمع بعض مشائخ اليامیین والأحلاف.

أحدهم: أحقاً أن الهادي يثق بابن بسطام حتى صار يعطيه ما طلب ويؤمِّن من استأمن له؟!!

آخر: يا هذا إن الهادي ما كان ليأخذ أحداً بما يضمره فإن ابن بسطام يتزلف للهادي ويظهر الولاء.

الأول: ولكنه يطعنه من خلفه ويهيج عليه الناس.

ثالث: إن الرجل لم يظهر العداء للهادي ولم يقتل أحداً من جنده .. وإلا لما توانى الهادي في عقابه ... ولكنَّ العجب من قوم قتلَ ابن سيطام خيارهم ونصب لهم الحرب مراراً ثم صيروه لهم صديقاً.

شيخ من الأحلاف: أتقصدنا يا هذا؟!

الأول: بل أقصد أنتم ونحن فقد قتل ابن بسطام منا ستة من خيارنا ولم يجرؤ أحدٌ منا أو منكم أن يأخذ بثأرهم.

شيخ الأحلاف: فمنا نفرٌ ومنكم نفرٌ .. يتبعون هذا الرجل

حتى يجدون منه غرة فيقتلوه.

شيخ اليامين: فكيف نصنع في الهادي؟

شيخ الأحلاف: نقول رجل قتل منا فقتلناه.

وأجمع أمرهم على ذلك واختاروا من يقوم بهذا الأمر

(٥)

أخذ ابن بسطام يتنقل بين قريتي ميناس والهجر .. بينما جماعة من الأحلاف واليامين يرقبونه ويحصون عليه خطاه.

فكان إذا دخل قرية الهجر صرف حرسه إلى ميناس لا يبقي معه إلا غلاماً له فحاولوا أن يكمنوا له بين القريتين فخافوا أن لا يظفروا به.

وفي أحد الأيام .. دخل ابن بسطام على الإمام الهادي (ع) في قرية الهجر ومعه جمع من بني الحارث يطلبون الأمان لعلي بن الربيع.

ابن بسطام: يا مولاي هؤلاء من أمنتهم يطلبون منك الأمان لابن الربيع.

الإمام الهادي: إن ابن الربيع وأخاه قد قتلا رجالاً من الأحلاف ولا يسعني في ديني أن أخرجه إليكم وعليه دم وأصحاب الدم يطلبونه.

فخرج القوم وقد يئسوا من خروج ابن الربيع من سجن الإمام الهادي (ع) فصرفهم ابن بسطام .. ودخل دار عبد الله بن الحسين يريد أن يطلبه شفيعاً عند الإمام الهادي (ع)..

ووقف الأحلاف واليامیون ينتظرون خروجه .. وجعلوا يرقبون الجنود الواقفين على باب الإمام الهادي (ع) فخرج أحد القادة من أصحاب الإمام الهادي (ع) وأخذ كل من على باب الإمام الهادي (ع) من الجنود وكذا من كان يقف على الدروب والمحارس .. وجمعهم في كتيبة لمتابعة القرامطة الذين كانوا قد انتشروا في الكثير من القرى.

أحد اليامين: لقد خليت القرية من الجنود وإني أرى الفرصة سانحة فلا يفوتنكم الرجل.

وخرج ابن بسطام من دار عبد الله بن الحسين يتبختر في مشيته .. وكيف لا يفعل وقد صار شيخ مشائخ بني الحارث؟ فالكل يلجأ إليه ويطلب وساطته.

فلم يشعر إلا برجل يغرز في بطنه خنجراً وآخر يضربه بسيفه فلم يلتفت إلى وراءه .. بل جعل يهرول نحو دار الإمام الهادي(ع) يرجو أن ينجو بجنود الإمام الهادي (ع)

ولكن عبد الله بن الحسين سمع الضجيج فحمل سيفه وخرج إلى الشارع .. فلما تجاوز باب الدار استقبله سهمان أطلقهما أحد اليامين .. فوقعا في يده وجعلوا يرمونه بالحجارة في ساقيه .. وأقبل غلام ابن بسطام يضربهم من خلفهم ولكنهم كانوا لا يلتفتون إليه فقد ظفروا بفريستهم واستقرت آخر طعنة فيه وهو على باب الإمام الهادي (ع) فارتمى على الأرض وأسرع اليامون والأحلاف إلى باب

القرية قبل أن يستطيع أحد منعهم أو للحاق بهم.

فركب الغلام فرس سيده وأسرع يريد ميناس لعله يبلغ بني ربيعة فيعترضوا قتلة ابن بسطام.

وخرج الإمام الهادي (ع) من داره وقد تقلد سيفه لا يدري ماذا يحدث فوقف مذهولاً ينظر إلى جثة ابن بسطام ثم رفع نظره إلى رجل يقف عليها قابضاً على سيفه

الإمام الهادي: من؟! عبد الله !! ما هذا؟!

عبد الله: خرج ابن بسطام من عندي فلقيه قوم من الأحلاف واليامين فجعلوا يضربونه حتى سقط هاهنا كما ترى فأردت اعتراضهم فضربوني بسهمين ورموني بالحجارة فلم أدركهم.

وأقبل الناس من أنحاء القرية لينظروا إلى مشهد ملأ قلوبهم بالشك والريبة.

ابن بسطام مقتول على باب دار الإمام الهادي (ع) .. ولا

أحد هناك إلا الإمام الهادي (ع) وأخوه عبد الله فارتفع الصوت وشاع الخبر:(الهادي قتلَ ابن بسطام!)

فأقسم الإمام الهادي (ع) للناس أنه ما أمر ولا دبر ولا باشر وجمع جيشه وخرج من ساعته يقصد الأحلاف واليامين طلباً بثأر ابن بسطام.

فلما علم اليامون والأحلاف ذلك أرسلوا إلى الإمام الهادي (ع) عشرة من رجالهم .. ولما وصلوا إلى الإمام الهادي ودخلوا إلى مجلسه قالوا له:

- يا إمام عدونا وجدناه فقتلناه كما قتلنا فاحبسنا وناصف بيننا وبينهم .. فمن وجدت عنده الفضل منا ومنهم فاعطه حقه .. فأمر الإمام الهادي بحبسهم.

فلما علم بنو الحارث بما حدث أسرعوا إلى بني ربيعة في ميناس يقولون: إنما هذا من فعل الهادي وتدبيره.

فلما علم الإمام الهادي (ع) بذلك أرسل إلى وجهاء بني

ربيعة أن يأتوه جميعاً فلما اجتمعوا إليه أعلمهم بقصة قتل ابن بسطام .. ثم حلف لهم على نحو ما حلف لبني الحارث

ثم قال:

- لقد رزيت به وما كان عندي من قتله علم فما نالني شيئ هو أعظم من الموقع الذي قتل فيه ولو أ ردت قتله ما قتلته في منـزلي .. ولوجهت إليه أن يأتيني في مائة من بني الحارث فأضرب أعناقهم جميعاً فكان ذلك أشبه شيء بي.

وهنا صدقه بنو ربيعة ثم قال متكلمهم:

- يا مولاي قد صدقناك فنحن نعلم ما بيننا وبين الأحلاف واليامين من العداء .. ولكن إعلم أنه ليس لنا بعد ابن بسطام أحد إلا أنت فأوص أبا جعفر محمد بن عبيد الله بنا خيراً.

الإمام الهادي: لكم ما طلبتم وأكثر ..

ثم التفت الإمام إلى أحد جنوده وقال له: أدع لي أبا جعفر

فلما أقبل عليه أبو جعفر قال له الإمام:

- يا أبا جعفر هؤلاء بنو ربيعة هم مني بمنـزلة الأهل والعشيرة فأستحلفك بالله بأن تنصف بني ربيعة من عدوهم وأن تنصرهم على من يظلمهم وأن تقوم بأمرهم.

أبو جعفر: لك ما طلبت يا أمير المؤمنين...

ثم انصرف الناس وقد اطمأنت نفوس بني ربيعة وخابت مساعي بني الحارث ورد الله كيدهم في نحورهم.

(٦)

استقرت الأمور وهدأت الفتن وأراد الإمام الهادي (ع) أن يعود إلى صعدة .. وبينما هو في مجلسه إذ دخل عليه محمد بن عبيد الله فقال:

- يا مولاي لقد طال بي المقام في هذا البلد وأهلها أهل سوء

فهم لا يزدادون إلا شراً وخُبثاً فاعفني منها.

الإمام الهادي: لا نحب أن نحمل عليك أمراً تكرهه فاستخر الله تعالى في أمرك .. وأنا أرجو أن لا تخالف ما أمرناك به إن شاء الله تعالى.

فلما سمع أبو جعفر كلام الإمام الهادي (ع) ورأى رغبته في بقائه أقبل عليه معتذراً من طلبه.

محمد: جعلت فداك .. إني والله ما سألتك ما سألتك خذلاناً مني لك .. ولا ترك النصرة لك والقيام معك.. ولقد وهبت نفسي لله ولك يوم بايعتك وأخذت على نفسي أن لا أرجع عن أمر تأمرني به ولو كان فيه هلكتي .. وعلى ذلك بايعتك ... ولكن معي حرمة وصبيان قد أثقلوا ظهري وثقل بهم ليلي ونهاري فإن رأيت أن تصيرهم عندك في صعدة أو تجعلهم بالحصن عند همدان حيث آمن عليهم .. وأقيم أنا مع بني الحارث أساقيهم كأس المنية

حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين فعلت.

الإمام الهادي: لا بأس عليك يا أبا جعفر .. أخرج أهلك إلى الحصن واختلف عليهم أنت وولدك علي.

ففعل محمد بن عبيد الله بما أشار عليه الإمام الهادي..

وقبل أن يرحل الإمام الهادي (ع) بأيام أرسل في طلب أبي جعفر .. فلما دخل إليه أبو جعفر قال له:

- يا أبا جعفر إني أخاف أن يكون في إخراج أهلك إلى الحصن ما يوهن أمرك ويطمع عدوك فيك فأعدهم إلى هنا.

أبو جعفر: إن شاء الله يا مولاي يكون ما قلت ...

وبالفعل أعادهم إليه في قرية الهجر.

وجمع الإمام الهادي (ع) بني عبد المدان.. وعاهدوه على نصرة محمد بن عبيد الله والموت معه.. ثم ودع الإمام الهادي (ع) محمد بن عبيد الله بعد أن ترك معه ثلاثة وعشرين فارساً وخمسين راجلاً.. ثم عاد إلى صعدة.

الباب الثالث

الفصل الأول

(١)

استقر الإمام الهادي (ع) بمدينة صعدة وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت لما كان يبلغه من كفر القرامطة وأفعالهم، ومنكراتهم، واستباحتهم للحُرَم .. ولكنه لم يجد الناصر الأمين.. فجعل يجلس للناس بعد كل صلاة يعظهم ويعلمهم .. ويسير مع الناس في الطرقات كأحدهم لا يخرج من المسجد حتى يبحث عن الغريب والمسكين فيشركهم

في طعامه.. وكان إذا رأى امرأة أمرها بالاحتشام والحجاب حتى صارت النساء في صعدة يلبسن البراقع فكان الإمام الهادي (ع) هو أول من أمر بها.

ولكن أعوان إبليس وجنوده على مر الزمان كانوا لا يطيقون أن يروا لله ولياً يمشي على الأرض .. فقد اجتمع رهطٌ من المفسدين في المدينة وأجمع أمرهم على أن يجعلوا لذلك النور حداً وأن يطفئوا نور الله بمكرهم.

أحدهم: إن الرجل قد تقدم به سنه .. ولا أرى لـه من القوة ما يدفع بها عن نفسه .. فإذا كانت صلاة الصبح وخرج للمسجد كمنا له وضربناه بسيوفنا ضربة رجل واحد.

فاجتمعوا في دارٍ قريبة من المسجد فلما كان قبل صلاة الفجر كمنوا له في زقاق ضيق بحيث يتمكنوا أن ينالوه بسيوفهم من مواقعهم وفي وقت واحد.

* * *

وبعد أن خرج الإمام الهادي(ع) من منزله متوجهاً نحو

المسجد توسط الإمام بعض الأزقة وصار في متناول سيوفهم .. يرونه من حيث لا يراهم وجعلوا يقولون في نفوسهم: الآن من ذا يجرؤ أن يبدأ؟؟

وأقبل ذلك الداعية العظيم وجعلت خطواته تقربه من أجله خطوة خطوة حتى كاد أن يبلغ الخطوة الأخيرة..

ولكن هيبة ذلك الإمام الذي كان الله يتولى الدفاع عنه كانت قد شلت حركتهم .. حتى خرج الإمام الهادي (ع) وصار على بعد عدة خطوات منهم فأفاقوا من غيبوبتهم فجعل بعضهم يلعن بعضاً ويرمي بعضهم بعضاً بالجبن {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ}

فقال رجل منهم: كفوا عن هذا يا قوم فالكل معذور فمن نظر في وجه الإمام الهادي (ع) هاب التقدم منه ولكن أدلكم على طريقة هي أنجح لنا.

أحدهم: كيف؟!

الرجل: إذا كان الغد كمنا له في الصومعة فإذا كان قبل الفجر وأراد دخول المسجد رميناه منها فلا يدري من أين أتته السهام .. ثم ننزل من الجهة الأخرى للجامع.

* * *

وفي آخر ساعة من ساعات الليل كان الإمام الهادي (ع) كالمعتاد يخرج من داره إلى المسجد ليؤدي الفريضة.

فلما توقف على باب المسجد .. لم يشعر إلا بسهم يخرق ثوبه من بين قدميه وآخرين استقرا في باب المسجد .. فاندفع بكل جسمه إلى داخل المسجد فنجي من السهام..

فلما أحس أنه لم يصب بأذى .. جلس في محرابه وجعل يصلي فقد كره أن يتبعهم .. فصلى بالناس في ذلك اليوم ثم التفت إلى الناس قائلاً:

- فليخرج أحدكم فليأتني بالنبال التي في باب المسجد...

فخرج أحدهم واحضرها.. فلما وضعت بين يديه قال للناس:

اللهم إني أمَّلت أن أسير فيكم بسيرة الاختلاط بكم .. وأن أصل بنفسي ولاية أمركم حتى أكون فيكم كأحدكم .. ولا أحتجب عنكم ولا أغيب بشخصي عن محاضركم .. ولا أترك الصلاة بكم .. ولا أكلكم إلى غيري .. فبدأتم بالمكيدة لي وأردتم نفسي .. وإني ضارب الحجاب ومتحرز عنكم حتى يحكم الله بيني وبينكم.

ثم خرج من المسجد مغموماً لما رأى من الناس من قلة الدين وما لمسه من عدم وفائهم له..

(٢)

لم يكن أهل نجران من أهل صعدة ببعيد فقد أدرك محمد بن عبيد الله أن القوم يأتمرون به ليقتلوه فقد علم أن بني الحارث لا يتركونه حيث علم أن ابن حميد يراسل بني الحارث

في أمره .. وأن القوم مجمعون على الفتك به .. وعلم أصحابه بذلك فأقبلوا إليه.

محمد بن الهيثم: قد علمنا من أمر ابن حميد ما علمت وهو الآن ينـزل في سوحان في عشرين فارساً وخمسين راجلاً فماذا ترى أن نفعل؟

محمد بن عبيد الله: الرأي ما رأيتم.

أحمد بن الأربد: أرى أن تجعل لنا رجلاً ممن تثق به .. فنجمع إليه بني عمرو وبني بشر ونخرج لقتال ابن حميد.

محمد بن عبيد الله: هذا عبد الله بن منير.. فافعلا ما رأيتما .. ولكن ارجو أن تجمعوا لي بني عبد المدان قبل انصرافكم.

فلما جمعت له بنو عبد المدان قال لهم محمد بن عبيد الله:

- يا بني عبد المدان قد علمتم ما يفعل ابن حميد وقد علمتم ما كان بينكم وبين الإمام الهادي أيده الله .. وما أعطيتموه

من أنفسكم فإن كنتم قوماً تثبتون على ذلك وتجمعون على حرب هذا الرجل فذلك .. وإن كنتم تقولون نحن معك وتعطون من أنفسكم القيام معي .. فإذا التحمت الحرب بيني وبين هذا الرجل قلتم: إنا نخاف الهلكة عليك وعلينا فاخرج من قريتنا فإن سلامتنا في سلامتك.. كما كنتم تقولون قبل هذا اليوم.. خرجت الآن من بلدكم .

فقال متكلم من بني عبد المدان:

- يا أبا جعفر إن فتنة بني الحارث أهون علينا من فتنة الإمام الهادي فلك علينا عهد الله ومواثيقه لتكون أنفسنا قبل نفسك وحرمنا دون حرمك .. فإذا حضرت الحرب فأبق أنت وخدمك حتى ترى مقامنا ويبين ذلك قتالنا .. فإن قتلنا قبلك فأنت عند ذلك أولى بنفسك.

محمد بن عبيد الله: ولكم مني عهد الله وميثاقه أن لا أبرح من القرية أو أقتل فيها .. فلا تطمعوا أنفسكم في خروجي كما

كنت أفعل أولاً برأيكم وإجماعكم عليّ بالخروج من القرية.

متكلم بني عبد المدان: أعزك الله إذا رأيت أن تخرج بعض ولدك إلى همدان ليكونوا فيها فإذا كثر علينا بنو الحارث أغاروا على بعض قراهم ليفرقوهم عنا.

وأمر محمد بن عبيد الله أولاده علي والقاسم وجعفر بالخروج إلى الحصن ليكونوا في ثقيف.

علي: يا أبي إني لا أثق بهؤلاء فأرجو أن تخرج معنا.

محمد: إني يا بني قد أخذت على القوم عهوداً وأرجو أن لا يغدروا بي.

القاسم: يا أبي أنت أعرف الناس بهم فليسوا أهل دين فكيف تثق بعهودهم؟ ..

محمد بن عبيد الله: امضوا يا أبنائي حيث أمرتكم .. فأقسم

بالله أن لا أغادر هذه القرية .. أو أقاتل بني الحارث حياً أو ميتاً.

جعفر: وكيف ذلك يا أبي؟!

محمد: إن قاتلوني وقاتلتْ معي بنو عبد المدان رجوت أن أمسك البلد ويأتي الإمام الهادي إلى الحق أعزه الله فاقتلهم به .. أو يقتلوني فيأتي الإمام الهادي فيقتلهم بي .. فأكون سبباً لقتلتهم التي كان توعدهم بها.

علي: فإنا لا نفارقك ونحن نواسيك بأنفسنا.

محمد بن عبيد الله: إن الأصلح لنا وجودكم في الحصن فإذا ضيق علينا القوم فرجتم عنا.

فخرج أولاده مكرهين وتركوا أباهم مع بني عبد المدان..

* * *

اجتمع بنو عبد المدان إلى محمد بن عبيد الله وعلم بذلك ابن حميد فجمع أصحابه وقال لهم:

- يا قوم هذا عبد الله بن منير قد أقبل في قتالكم واجتمعت بنو عبد المدان إلى أبي جعفر وأخاف إن قصدناهم للحرب أن ينالوا منا .. فأرى أن نظهر الطاعة والمسالمة حتى تتفرق جموعهم .. ثم نتحرك لقتالهم.

فلما أقبل عبد الله بن منير خرج إليه ابن حميد.

ابن حميد: أعزك الله أيها الأمير .. إنا ما قصدنا بجمعنا هذا حربكم وإنما أردنا طلب الأمان من أبي جعفر فلا تعجل علينا.

عبد الله بن منير: إن أبا جعفر لا يؤمنك حتى تلزم دارك وتترك إثارة الفتن.

ابن حميد: إني ألزم داري منذ اليوم وأنزل عند ما يحب أبو جعفر ..

فعاد عبد الله بن منير وأصحابه إلى أبي جعفر فأخبره الخبر .. وذاع في الناس خبر استئمان ابن حميد وأصحابه ..

فعاد الناس إلى ديارهم وتفرقوا إلى بلدانهم.

وأقبل العساكر إلى أبي جعفر يطلبون منه أجرتهم فأرسلهم إلى الحسن بن محمد البعداني وكان والياً على الجباية فلما نزلوا عليه أخبروه أن أبا جعفر أرسلهم إليه.

الحسن: أخبروا أبا جعفر أن ما في أيدينا من هذه شيء .. ولكن هناك بقية أموال عند بني الحارث فإذا شاء أرسل إليهم..

الجندي: بل نذهب نحن إليهم ونطلبها منهم.

وانطلقوا من ساعتهم إلى ابن حميد يطلبون منه المال فلما أقبلوا إليه أوهمهم أنه يعطيهم المال ثم جمع بعض قومه.

ابن حميد: هؤلاء ثلاثة فرسان .. وخمسة عشر راجلاً من جنود أبي جعفر فلنخرج إليهم لا أريد أن يعود إلى أبي جعفر من يخبره بما حدث ..

وفجأة.. خرج ابن حميد وجمع من أصحابه فأحاطوا بهم ثم

هجموا عليهم يقتلونهم .. فاستبسل الجنود في الدفاع عن أنفسهم ولكن القوم تكاثروا عليهم فقتلوا منهم تسعة رجال ونجا من بقي منهم بعد أن أصيبوا بجروح كثيرة.

ابن حميد: يا قوم، الآن فلتحشد بني الحارث لحرب أبي جعفر فأنا ذاهب إلى ميناس لأحمل بني ربيعة على الحرب معنا .. وأنتم تفرقوا في البلدان لجمع بني الحارث وموعدنا غداً على أبواب مدينة الهجر ...

(٣)

كان محمد بن عبيد الله قد خرج إلى دروب القرية يحصنها بعد أن شاور بني عبد المدان فكرهوا الخروج إلى حرب ابن حميد وبني الحارث.

في حين احتشدت بنو الحارث من كل سهل وجبل وعسكروا على مقربة من قرية أبي جعفر .. وخرج ابن حميد إلى بني ربيعة في ميناس..

ابن حميد: يا بني ربيعة .. إن بني الحارث قد أجمعت على أمر .. فأدخلوا فيما دخل قومكم فإني لا أرجو النصر إلا بكم.

فلم يزل بهم حتى أجابوه..

ومع طلوع الشمس كان جموع بني الحارث تحيط بقرية الهجر .. فخرج إليهم بنو عبد المدان وأصحاب محمد بن عبيد الله.. فقاتلوهم أشد قتال إلى غروب الشمس ثم تراجعوا إلى معسكرهم..

ولما اشتد ظلام الليل أرسل محمد بن عبيد الله إلى أولاده رسولاً فأسرع إليهم وهم في الحصن .. فلما دخل عليهم بادره علي بن محمد بن عبيد الله بالسؤال قائلاً: كيف تركت أبي؟

الرسول: بخير .. ولكن القوم قد أجمعوا على قتله .. وهو يأمرك مع اخوتك أن تغيروا على قرى بني الحارث لعلهم يتفرقون عنه.

علي: أخبر أبي أن وادعة قد اعتذرت .. وشاكر وثقيف قد كرهوا الخروج معي إلى قرى بني الحارث وطلبوا منا أن نقصد بهم بني ربيعة في ميناس .. وإني لا أجد إلا نفسي وإخوتي فالله الله في نفسه وحرمه فليخرج من أعلا درب شاكر فإن الجميع يتربصون به ليقتلوه وإنه قد صح عندي خيانة بني عبد المدان لـه .. فليخرج إلينا أو ليأذن لنا في المسير إليه.

فلما عاد الرسول إلى محمد بن عبيد الله حمله رسالة أخرى إلى وَلَدِهْ ..

وعاد الرسول إلى علي بن محمد..

علي: هل أذن لنا في المسير إليه؟

الرسول: بل يأمرك بالثبات في مكانك لعل مدد الإمام الهادي يصل إليكم .. وقد كتب إليك هذه الرسالة.

أخذ علي الرسالة وجعل يقرؤها على إخوته فإذا فيها:

((أما بعد فقد وصل كتابك يا بُني وفهمت ما ذكرت من خذلان همدان لك وأنه ليس معك أحد إلا أهل الحصن .. فأحسن الله جزاءهم وكافأهم عنا بالجنة .. وفهمت ما ذكرت بما صح عندك من دخول بني عبد المدان مع بني الحارث.. واعلم يا بني أنا لم نقم فيما قمنا فيه إلا طاعة لله ورغبة في ثوابه وخوفاً من عقابه {يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَّ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}.. ولسنا نحب أن نصبر إذا كنا في رخاء .. ونجزع إذا كنا في بلاء .. ولا نكون ممن ذمه الله في كتابه ممن {يَعْبُدُ اللهَّ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ} فانظر يا بني أحاطك الله تعالى أن لا تعيد إليّ في المخرج كتاباً فلا أرد له جواباً)).

علي- وهو يخاطب أخاه القاسم: أخي قم فارتحل إلى الإمام الهادي أعزه الله فقل له بخبرنا .. فإنه لو علم ما نحن فيه من الكرب ما تأخر عنا ساعة.

(٤)

كان الإمام يتتبع أخبار القرامطة ويرصد تحركاتهم.. وزاد من غمه ما بلغه من أفعال علي بن الفضل في صنعاء والحسن بن حوشب في مسور وما ارتكبوه من المنكرات !!.

فلما استقر في مجلسه الذي يجلس فيه للقضاء بين الناس أقبلت إليه رسل من الدعام ومحمد بن الحسين الحسني وابن كيالة يخبرونه أنهم قد دخلوا صنعاء وأخرجوا منها القرامطة ويطلبون منه أن يرسل إليهم بالجنود والمدد .

الإمام الهادي: أين محمد بن يحيى؟ ..

فلما أقبل عليه قال له:

- بُني .. إن جهاد هؤلاء القوم خير ما بقي للمرء في هذه الدنيا .. فاجمع من يطيعك واخرج مع القوم لعل الله أن ينصرهم بك.

ومن ساعته جهز محمد بن الهادي جنوده وتوجه بهم إلى صنعاء..

* * *

كانت شوكة القرامطة قد قويت وكثر عددهم .. فخاف أهل صنعاء أن يدخلها القرامطة مرة أخرى .. فيفعلوا بهم كما فعلوا أولاً من سبي النساء .. واستباحة الحرم .. وإظهار الفجور .. فسار بعض مشائخ صنعاء ووجهائهم إلى مدينة صعدة يريدون لقاء الإمام الهادي (ع) .. فلما وصلوا إلى مجلس الإمام قالوا له:

- يا إمام لا تؤاخذنا بسوء فعلنا وما كان منا فقد صرنا إلى ما قلت .. فسبيت نساؤنا وأخذت أموالنا ورأينا من المنكرات الشيء العظيم .. فاخرج معنا فإن ابن الفضل وابن حوشب لا يدخلان صنعاء وأنت فيها.

ثم أخبروه بما حدث في صنعاء بعد دخول القرامطة من المنكرات فضاقت بذلك نفسه وقويت عزيمته على الخروج بنفسه لقتالهم وجمع من استطاع جمعه وخرج يقصد صنعاء.

ولما دخل الإمام الهادي صنعاء اجتمع إليه آل يعفر وابن كيالة ومحمد بن الحسين ووجهاء البلاد .. فبايعوه وأظهروا

وجوب طاعته .. ووعظ الإمام الهادي (ع) الناس وأرشدهم ورغبهم في الجهاد وجهز الكتائب وعقد الألوية .. فأمر محمد بن الحسين وابن كيالة بقتال القرامطة في قلعة وادي ضهر وشبام..

وأرسل ولده محمد بن الهادي (ع) إلى ذمار ليقاتل من فيها من القرامطة ودارت المعارك في جميع أنحاء البلاد .. والإمام الهادي (ع) يجهز المدد من صنعاء إلى كل بلاد .. في الوقت الذي كان الجميع يدين له بالطاعة بعد أن صاروا في أشد الحاجة إليه.

وبقي الإمام الهادي (ع) لا يألو جهداً في حرب القرامطة حتى أضعف شوكتهم.

وأمنَ ابن كيالة ومن معه .. وظنوا أنهم قادرون على حرب القرامطة دون معونة الإمام الهادي (ع) .. فأقبل إلى صنعاء في جيش عظيم فدخلها يريد حرب الإمام الهادي (ع) فأرسل الإمام الهادي (ع) في طلب ولده محمد من ذمار ..

وأعاد أمره بأن يعد العدة للرحيل إلى صعدة.

محمد: أبي .. ألا نقاتل هذا الفاسق الذي دعانا لمّا احتاج إلينا فلمّا انتصر بنا أراد قتالنا!!

الإمام الهادي: دعه يا بني لغيرنا فإن الله يولي الظالمين بعضهم بعضاً .. فإنما خرجنا لرفع الظلم عن أهل هذا البلد .. فإذا لم يريدونا لم نردهم.

وخرج الإمام الهادي (ع) إلى صعدة وهو يدرك أن القرامطة عائدون إلى صنعاء..

محمد: أترى يا أبي أن أمر القرامطة سينتهي بعد الذي أنزلنا بهم من الهزائم؟

الإمام الهادي: بل يعظم ويتشعب فليس هناك من يقاتلهم حمية لدين الله بل طلباً للدنيا.

محمد: أرجو الله أن يمد في عمرك حتى تقوض ملكهم وتكسر

شوكتهم.

الإمام الهادي: بل أموت يا أبا القاسم وهم في أشد قوتهم.

فاغتم محمد بن الهادي (ع) لما سمعه من أبيه وضاقت به نفسه وتمنى أنه ما كلمه ولا سأله..

فلما اقترب من صعدة خرج إليه القاسم بن محمد بن عبيد الله يبلغه خبر أبيه واخوته ويطلب منه سرعة المسير إلى نجران .. فأمر الإمام الهادي (ع) أصحابه بالاستعداد للرحيل..

الفصل الثاني

(١)

عادت بنو الحارث بعد قتال مرير لم تظفر فيه بما أرادت .. فقد تجالدوا بالسيوف حتى هدموا جانباً من السور فأقبل محمد بن عبيد الله إلى ذلك الثغر فانهزم بنو الحارث .. وأمر محمد بن عبيد الله ببناء ما تهدم .. فلما أدرك ابن حميد أن القرية لا يمكن أن يدخلها بنو الحارث عنوة جمع أهل الرأي في قومه.

ابن حميد: إن القرية حصينة فانظروا لنا في حيلة ندخلها.

فقال له ابن الحماس - وكان من أشد الناس عداء للإمام الهادي وأتباعه:

- أنا أدلك عليها يا ابن حميد .. فإن لك في القرية من

يفتحها.. فأرسل من يتسلل إليها فيأتي بني بشير وبني عمرو فهم من خيار بني الحارث فإذا دخلوا معنا فيما نحن فيه نصرهم بعض بني عبد المدان وفتحوا لنا القرية.

ابن حميد: فأرسل من يعرف كيف يدخل القرية.

وتم الأمر في خفاء وسرية تامة ووضعت الخطة في كيفية دخول القرية. .

ومع طلوع الفجر خرج من كل بطن من بطون بني الحارث عشرين مقاتلاً فكمنوا خلف القرية.

وخرج ابن حميد بمن معه فوقفوا على باب الدرب وتقدم رجلان من بني الحارث أحدهما إبراهيم الجعدي -من وجوه ربيعة - ومحمد بن ملاحظ المحجل.. فجعلا يناديان على الحرس:

- نريد مقابلة محمد بن عبيد الله..

ففتح لهما الباب.. فلما دخلا جعلا يقولان لمن كان واقفاً

على السور وفي الطرق: إنما جئنا للصلح والعافية فرحم الله إنساناً لم يتكلم بما لا يحتاج إليه.

فدخلا على محمد بن عبيد الله وسلما عليه .. وأطالا معه الحديث..

وشاع في الناس ما قاله رسل بني الحارث فنـزل الحراس عن الأسوار والمحارس وجعلوا ينتظرون ما يخرج به الرسولان.

وطلب الرسولان من محمد بن عبيد الله مقابلة من في القرية من وجوه بني الحارث وبني عبد المدان على انفراد فقال لهما محمد بن عبيد الله: إفعلا ما أحببتما.

فخرجا إلى بني عبد المدان وطال بينهم الكلام..

وبينما الناس كذلك إذ أقبل فارس من الجهة الأخرى للقرية فنادى الرسولين .. فركبا بسرعة وتوجها إلى خلف القرية .. وتفرق بنو عبد المدان وانحازوا في جانب بعيد عن بيت محمد بن عبيد الله.. فلم يدرك محمد بن عبيد الله

ولكن الخبر ما كان ليخفى عليهم طويلاً فقد أقبل فارس من أنصار محمد بن عبيد الله ودخل إلى داره.

الفارس: يا مولاي .. إنما أراد إبراهيم الجعدي خديعتك وإلهاء الناس عن الحراسة فقد هدم سور القرية من الخلف ودخل كمين بني الحارث .. وقد مالت معهم بنو عبد المدان فحاذر على نفسك وأصحابك فإن القوم في أثرى:

فأطرق أبو جعفر قليلاً ثم قال:

غدرتم بني عبد المدان وكان الغدر من شيم الجبان

حلفتم لي بأيمانٍ غلاظٍ تخر لها الصخور من القنان

بأنكم على نصري حراصٌ غداة الروع في وهن الطعان

فلم توفوا بعهدكم وكنتم شراراً يابني عبد المدان

❊ ❊ ❊

غرز أبو جعفر محمد بن عبيد الله سيفه في الأرض .. ثم

اتكأ عليه .. لا يدري ما هو فاعل وأقبل نحوه خُلَّصُ أصحابه فجعل عاقل بن عبد الله يحركه ويقول:

- يا مولاي إن القوم قد أجمعوا عليك فالله الله في نفسك فإن الفضيحة أهون من الهلكة.

فرفع أبو جعفر نظره إلى عاقل وقال له:

- الفضيحة بالله وبالإمام الهادي يا عاقل أهون؟! لا والله فلن أبرح هذا المكان أو أرى من القوم إجماعاً .. فأرجو أن ينصرني الله عليهم فأما ما دمت أجد لي من القوم ناصراً فلا أبرح قريتهم .. أتريد أن يحتجوا عليّ غداً بأني خرجت من عندهم ولهم عليّ طاعة.

فبينما هم كذلك وقد اجتمعوا على باب محمد بن عبيد الله إذا بالقوم يحيطونهم من كل جهة ومن كل الشوارع فانتصب محمد بن عبيد الله ونظر إلى أصحابه وقد أشرقت على محياه ابتسامة عظيمة وأشرق وجهه وكأنه بشير

بشيء عظيم .

محمد بن عبيد الله ـ وهو ينظر إلى أصحابه وقد رأى في وجوههم ما لا يحب: لا تهنوا يا أحبائي ولا تجزعوا لقلتكم وكثرة عدوكم .. وموتوا كراماً على دينكم .. فقد حمد الله في كتابه القلة وذم الكثرة.

الحسن بن أحمد البعداني: والله يا سيدنا أنا لنعلم أننا على الحق وهم على الباطل وما يغمنا إلا أن يتمكنوا منك .. ولوددنا أن الله يسلمك منهم بنا جميعاً .. فأقصد ما أحببت واعمل ما شئت فأنفسنا دون نفسك ودماؤنا دون دمك ولتجدنا صابرين في جميع حالاتنا موفين لله تعالى.

محمد بن عبيد الله: أوفى الله أماناتكم وأحسن جزاكم فأنتم أفضل مما ذكرتم.

الحسن البعداني: مولاي أين جعلت حريمك فألحق بهم حريمي.

محمد بن عبيد الله: قد أنزلتهم دار الإمام الهادي فإنهم أثقل شيء عليّ في هذا اليوم.

عبد الله بن منير: اركب يا مولاي فإن القوم قد غشيوك وقاتلهم من على دارك.

محمد بن عبيد الله: ليس هذا وقت ركوب ولكن انزلوا معنا نجالد القوم عن أنفسنا وحرمنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين.

عبد الله بن منير: يا مولاي إن الخوف قد داخل قلوبنا فاتركنا نقاتل على دوابنا.

محمد بن عبيد اللهـوهو يبتسم: افعلا ما رأيتما ..

وقصد بنو الحارث أبا جعفر .. فأسرع الحسن بن أحمد البعداني وعبد الله بن منير فحملا على القوم فكشفوهم عنه وصاروا في الجانب الآخر.

وجعل أبو جعفر يحمي ظهور أصحابه .. ويقف على باب الدار ويناديهم: ادخلوا الدار.

فلما رأى إبراهيم بن الجعد ما يفعله محمد بن عبيد الله نادى غلاماً له قائلاً: اذهب فادخل معهم الدار .. فإذا أقبلنا نحاصر الدار فتحت الباب لنا.

فدخل الفتى وأغلق أبو جعفر الباب وصعد مع أصحابه الدور الثاني ففتح الغلام الباب فدخل بنو الحارث فتنبه إليهم محمد بن الحسين العباسي فثبت يقاتلهم على الدرج حتى سقط قتيلاً فوقف مكانه رجلٌ من همدان وتداعت بنو الحارث فأحضروا السلالم وصعدوا جوانب البيت فهدموا الجدران الخارجية فصار أبا جعفر ومن معه بالأستار .. فنالهم القوم بالسهام من كل جانب.

محمد بن عبيد الله: إني أخاف أن ننشغل بقتالهم فيخلفونا إلى دار الإمام الهادي فقد أنزلت الحريم فيه فأخاف عليهم ..

فتعالوا لنقاتل هناك خيرٌ لنا من هذا المكان.

ثم أسرع محمد بن عبيد الله وأصحابه إلى الدار فدخل على النساء والأطفال فوجدهم في أشر حال .

محمد بن عبيد الله: صبراً نساء آل محمد .. فلكن فيمن سبقكن قدوة.. موتوا قبل أن يصلوا إلى واحدة منكن يكن لكم فخر الدنيا وثواب الآخرة.

فنظرت النساء إلى بعضهن وتعاهدن على الدفاع عن أنفسهن حتى الموت.

(٢)

بدأ أصحاب محمد بن عبيد الله يخرجون والواحد تلو الآخر فخرج محمد بن عبيد الله العامري من بني دؤيب فلما قتل تلاه عباس بن عبد الله البعداني فقاتل أشد قتال .. فلما قتل خرج يوسف بن يعقوب الهمداني فقاتل القوم حتى بقروا

بطنه فعاد إلى أصحابه وقد شد عمامته على بطنه.. ثم جعل ينظر إلى من بقي مع أبي جعفر، ويقول:

- بأبي وأمي قاتلوا عن الأخيار حرم رسول الله الأطهار.

ثم استقبل بني الحارث بوجهه ونادى فيهم قائلاً:

- يا معشر بني الحارث إن الرجال تقتل وتقتل .. ولكن اخلفونا في حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما يشبه أن يكون لمثلكم ويبرز لكل رجل منا رجلان منكم..

ثم شد على القوم فتسابقت إليه سيوفهم فمزقوه.

فصاح أحمد بن الهيثم بأخيه الحسن بن الهيثم فجعلا يقاتلان حتى قتلا ..

فتبعهم أحمد بن عبد الله العامري والقرشي فكشفا بني الحارث عن المكان.. فلما رأى ابن حميد ذلك .. نادى على أصحابه:

- أحرقوا عليهم البيت.. وانقبوه من خلفه.. واهدموا عليهم السقف..

فجعلوا يرمونهم بالحجارة والأعواد المشتعلة.

فخرج إليهم أحمد بن عبد الله وإبراهيم بن سليمان -خال أبي جعفر- فعاد وقد كثرت فيه الجروح فتلقاه محمد بن عبيد الله قائلاً: أبشر بالجنة يا خال .. فنحن بك لاحقون.

ثم تتابع أتباع محمد بن عبيد الله .. حتى لم يبق منهم إلا القليل .. واشتد عليهم البلاء وتكاثر عليهم الأعداء..

ولما رأى أصحاب محمد بن عبيد الله أنفسهم على هذا الحال نظر بعضهم إلى بعض.. وتكلم أحدهم فقال:

- والله لا حياة لنا بعد أصحابنا وإنما كانت هجرتنا من بلداننا وترك أموالنا وأوطاننا طلباً لمثل هذا اليوم فقد أدركنا أمنيتنا إذا صارت دماؤنا تسفك دون آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ..

ثم أقبلوا إلى محمد بن عبيد الله ..

أحدهم: يا سيدنا هل أدينا ما يجب لله ولك علينا؟

محمد بن عبيد الله: نعم جزاكم الله من أصحاب خيراً فلم أر أوفى منكم عهداً ولا حرمة ووداً.

فقالوا بصوت واحد:

- فنحن نقيك بأنفسنا ونستودعك الله وهو خليفتنا عليك.

ثم هبوا هبة رجل واحد فقاتلوا قتال الأبطال حتى قتلوا جميعاً.

وتلفت محمد بن عبيد الله .. فلم يجد إلا نفسه وأطفاله ونساءه .. ثم نظر إلى القوم فإذا هم يتسابقون نحوه..

فمن للغريب؟! .. ومن للوحيد؟! .. ومن يحمي النساء إذا ما رحل الرفيق؟

* * *

ذهب الجميع كلٌ إلى حال سبيله وبقي ولي الله يشكو ضعفه..

فلما رأى القوم يقصدونه سل حسامه وأقبل نحوهم

يضربهم بالسيف ضرب فتىً من نسل علي .. فلم يبق منهم رجل سارع إليه إلا تمنى أنه كان في آخر الصفوف .. ولكن النبل كان أشد فتكاً من ضربات السيوف فقد أصابه نبل في وجهه .. واشتد عليه العطش فعاد يريد شربة ماء فلما أقبل على النساء .. أقبلت عليه إحداهن بشربة ماء..ولكن فمه كان قد إمتلأ بالدماء فلم يستطيع أن يشرب..

وبينما هو على هذا الحال دخل عليه بنو الحارث من باب الدار فحمل عليهم وردهم وخرج يتبعهم ثم عاد إلى الدار فناداه رجل من بني الحارث يسمى الحارث بن الحارث الحماسي:

- اخرج إلينا ولك الأمان .. أمان الله وأمان رسوله.

أبو جعفر: وهل ذلك فيكم؟

الحارث: نعم.

أبو جعفر: لا والله .. لا كان ذلك أبداً ولا مضيت إلا على ما

مضى عليه آبائي الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين..

ثم خرج إليهم فقاتلهم أشد قتال .. فكمن له الحارث على باب الدار.. فلما أراد محمد بن عبيد الله العودة إلى الدار ضربه الحارث على وجهه فضربه محمد على عاتقه.

فتلاوم بنو الحارث وصاح فيهم ابن حميد: أيشكيكم رجل واحد اهدموا عليه الدار فليمت مع حرمه وصبيانه.

فبادر القوم إليه وأشعلوا النار في البيت وهدموا بعض أركانه .. فخرج إليهم محمد بن عبيد الله ففرقهم وأراد العودة إلى الدار فضربه أحدهم على عضده الأيمن .. وأسرع إليه آخر يريد أن يمسكه بيديه فرفع محمد سيفه بيده اليسرى وغرسه في صدر الرجل ثم ضغطه بصدره فخرج من ظهر الرجل فسقط الرجل.

وحال الغبار والدخان بين بني الحارث ومحمد بن عبيد الله .. فدخل على أهله..

فودعهم وأوصاهم بالصبر ثم قال لهم: الله خليفتي عليكم..

ثم حمد الله وصلى على محمد وآله .. ورفع يديه وجعل يقول: اللهم إنك تعلم أني قد وفيت لك ببيعتي وليحيى بن الحسين بما بايعته عليه .. فأسألك أن تعرفني ذلك المقام المحمود الذي وعدت به أولياءك الصالحين.

وأراد بنو الحارث اقتحام الدار فخرج إليهم فتبعه الحارث بن الحارث من ورائه فضربه من ورائه وخر محمد بن عبيد الله صريعاً بين أيديهم .. ونال أعداء الله مرادهم ونالت منه سيوفهم فقطعوا جسده إرباً إرباً .. وجردوه من ثيابه ..ولم يبق من بني الحارث رجل إلا وأغمد سيفه في ذلك الجسد الطاهر .

وأقبل الحسن بن علي بن محمد بن عبيد الله وهو طفل صغير في سن ست سنين فرمى بنفسه على وجه جده ورقبته وهو يصيح فيهم:

- ويلكم لا تمثلوا بجدي أما كفاكم قتله مع أصحابه!!

فلم يرحمه أحد ولم يشفقوا عليه.. بل ضربه أحدهم بسهم في بطنه فأغمي على الصبي ثم رموا بجسمه الصغير فوق جثة جده.

ثم أقبل أبو العوارم بن موسى القطني وفصل الرأس عن الجسد وهو يرتجز شعراً:

شفيت نفسي منكم نسلَ علي شيخ لشيخ وصبي لصبي

لست أبالي بعد ذا ما حل بي من سخط الله ومن لعن النبي

ثم تسابق بنو الحارث إلى سلب النساء فاشتدت النساء في الدفاع عن أنفسهن.. فسلّ الجبناء سيوفهم وجعلوا يضربون النساء فأكثروا فيهن الجراح .. وحمل أحدهم على فتاة لمحمد بن عبيد الله فضربها بالسيف ضربتين حتى قتلها.

ولم يبق من النساء امرأة إلا ونالت من الأذى ألواناً.. فقد جردن جميعاً من الثياب.. فخرج نساء من بيت محمد بن منجاب المداني .. فرمين عليهن ببعض الثياب وأدخلنهن

إلى دورهم.

وأخذت الجثث فصلبت وحملت الرؤوس وطاف بها أتباع ابن حميد في قرى بني الحارث .. ثم جعلوا منها هدفاً يتسلى الناس برميه .. وجعل ابن حميد يتبع أولاد محمد بن عبيد الله يحاول قتلهم..

(٣)

كان القوم قد حالوا بين عبد الله بن منير والحسن بن أحمد البعداني .. وبين الدفاع عن أبي جعفر .. فانطلقا إلى أحد الدروب..

فتبعهم فرسان بني الحارث فضربا باب الدرب بسيوفهم فانكسر .. فخرجا فلما بلغا الحصن استقبلهما علي بن محمد فبادرهما بالسؤال قائلاً: كيف تركتم أبي؟

عبد الله بن منير: عظم الله أجرك وأحسن عزاءك لقد نال أبوك مراده .. ثم راح يقص عليه كيف كان استشهاد أبيه.

علي بن محمد: رحمة الله عليه حياً وميتاً فقد انتظر هذا اليوم طويلاً .. ولكن اخبراني أين ترك أبي النساء والأطفال؟

الحسن البعداني: والله لقد أصابهم الشيء العظيم وآخر عهدي وقد أدخلوا إلى بيت محمد بن منجاب .. ولكن ماذا أنت صانع الآن فإني أخشى أن يتبعك بنو الحارث فإن ابن حميد رجل شر ولا أراه إلا يسعى في قتلك واخوتك.

علي بن محمد: كتبت إلى إبراهيم الجعدي من بني الربيعة أذكرهم بما كان من إحسان الإمام الهادي إليهم بعد مقتل ابن بسطام وأشكو إليه خذلان الناس لي وأطلب منه الإعانة.

الحسن البعداني: وماذا أجابوك به؟

علي بن محمد: لقد أخبروني أن إبراهيم الجعدي قد خرج لنصرة أبي .. وإنهم ينتظروني حتى أقدم عليهم فيكونوا لي عوناً على عدوى.

عبد الله بن منير: والله إنما أرادوا استدراجك يا مولاي ليقتلوك فإن بني ربيعة قد دخلت مع بني الحارث فيما دخلوا فيه وإن إبراهيم الجعدي كان على رأس بني ربيعة.

علي بن محمد: والله لقد راودني أهل الحصن مراراً أن نغزو بني ربيعة في ميناس فأبيت عليهم وفاءً للعهد ولما أوصانا به الإمام الهادي من الإحسان إليهم .. فما أشد وفاءنا لهم وما أعظم خيانتهم لنا..

ثم غرق علي بن محمد في حزنه بعد أن خذله الرفيق والحبيب من همدان ونقض بنو ربيعة عهودهم وقتل بنو الحارث أباه وسبوا أهله وبنيه فأنشأ يقول:

منع الحزن مقلتي أن تناما ... وذرا الدمع من جفوني سجاما

يوم ناديت حي الأحلاف ... للنصر على مذحج وناديت

ودعونا لنصرنا الوادعيين ... فلم ينصروا الأمين الهماما

ألا تجيبون صارخاً قام يدعو: ... يالهمدان.. إنصروا الإسلاما

فدعونا ثقيفاً كي ينصرونا فأجابوا ولم يكونوا لئاما

نصرونا على العدو وقاموا دوننا يدفعون عنا الطغاما

فأتانا الخبير يخبر أن قد قتل الهاشمي وذاق الحِمَاما

قتلت حارثُ بن كعب شريفاً خير من وحد الأله وصاما

قتلوه فأفحشوا القتل فيه حين أضحى لديهم مستضاما

لهف نفسي عليه لهفاً ولهفاً لهف حيران لا يلذ مناما

لهف نفسي عليه من لي بعده أو للنساء واليتاما

كان حرزاً للمسلمين وكهفاً ورخاءً ومعقلا ونظاما

ثم عاد علي بن محمد واستقر في الحصن.

وشاع خبر مقتل محمد بن عبيد الله في الناس فأقبلت همدان معزية ومعتذرة إلى علي بن محمد وهو لازم للحصن ينتظر قدوم الإمام الهادي يحيى بن الحسين (ع).

وبعد طول انتظار أقبلت طلائع جيش الإمام الهادي (ع) إلى نجران آملة أن تدرك الغريق قبل غرقه..

(٤)

علم الإمام الهادي (ع) بما حدث فاشتد عليه الأمر وضاقت به الدنيا .. ونزل به المرض .. واشتدت عليه علته فلم يكن يعدل عنده بمحمد بن عبيد الله أحداً.

وأمر الإمام الهادي بإرسال الصوارخ في همدان يجمع بطونها .. فلما علم بنو الحارث بذلك خافوا خوفاً شديداً فجمعهم ابن حميد وقال لهم:

- يا قوم إن الهادي قد أرسل في همدان وأقبل عليكم بجمع من خولان فإن اجتمعوا لم يكن لكم بحربهم طاقة فتعالوا لنبيته الليلة على حين غرة منه وقبل وصول همدان فقد بلغني أنه مريض لا يقوى على القتال.

وأجمعت بنو الحارث على ذلك .. فلما أدبر النهار وأقبل الليل بظلامه خرجت بنو الحارث في جموع كثيفة فأحاطوا بالحصن من كل جهة .. فعلم الإمام الهادي (ع) بذلك وهو شديد المرض .. فلم يستطع أن يركب الخيل .. فأمر الناس

بالخروج لقتال القوم.

ومع طلوع الفجر خرج الفرسان لقتال بني الحارث فما لبثوا إلا ساعة من الزمن .. وتراجع فرسان الإمام الهادي (ع) وولوا مدبرين يتسابقون في دخول الحصن فاقتطع بنو الحارث رجلاً من أتباع الإمام الهادي (ع) يسمى يوسف بن أبي حرب العنسي فقتلوه.

فخرج الإمام الهادي (ع) إلى فرسانه وهو شديد العلة فجعل ينظر إليهم في حسرة وألم ويقول:

- حين تخلفت عنكم ساعة واحدة .. وجد العدو فيكم مدخلاً .. ولم تعطفوا على أخيكم حين جرح معكم فتستنقذوه من يد العدو .. ولو كنتم على حقيقةٍ ما فعلتم هذا الفعل .. ولقد فسدت قلوبكم .. ولن تروا من بعدي إماماً تقاتلون معه حيناً من الدهر .. هذه ثمرة فساد النيات .. وإظهار الملالة للجهاد .. وضعف اليقين .. هذا

فعل من يأمن الله تعالى في توليه الأدبار بغير عذر ولا إبلاء في العدو ..

فصاح الناس: قد وقع علينا الذنب بما فعلنا فاقبل منا تجديد البيعة ولك علينا أن نصحح التوبة.

الإمام الهادي: اعلموا أنه ما نكص قومٌ على أعقابهم إلا بمعصية فيهم ..

وذكرهم الإمام الهادي(ع) بما كان من قصة بني إسرائيل وعصيانهم الذي أدخل عليهم الهزيمة.

وكان علي بن محمد قد جرح في هذه الحرب.

ولما رأى الإمام الهادي (ع) تخاذُل الناس وكثرة خيانتهم وقلة وفائهم وتظافر أهل الباطل وعلم أنه لا يقوى على قتالهم بنفسه .. رتب طريقة للخروج من تلك البلاد الظالم أهلها والذين ما عرفوا إلا بالحرب لله ولرسوله وأهل بيت رسوله

فخرج عائداً إلى صعدة بمن بقي معه من أهله وولده وولد محمد بن عبيد الله رحمه الله رحمة الأبرار.. وهو يشكو إلى الله كثرة عدوه .. وقلة ناصره .. وضعف جانبه .. فلما استقر في صعدة .. اشتد به المرض فلزم بيته .. وتولى الأمر ولده محمد بن الهادي (ع).

(٥)

وفي آخر سنة ٢٩٧هـ أقبلت الأنباء من صنعاء بأن علي بن الفضل القرمطي قد دخل صنعاء وجمع النساء في دار فلما كانت ليلة الجمعة أدخل عليهن الرجال.. فكان الرجل يفتعل بأمه أو أخته وهو لا يدري.

فأكبر الإمام يحيى بن الحسين عليه السلام ذلك الفعل واشتدت مخافته .. وزاد ذلك من وطأة مرضه فأمر الناس بالجهاد ورغبهم فيه .. وندب لهم علي بن محمد بن عبيد الله قائداً .. وراسل الدعام بن إبراهيم فخرج الناس للجهاد

وعسكروا على أبواب صنعاء.

فخرج إليهم القرامطة في جمع عظيم فاشتد بينهم القتال حتى منّ الله على أوليائه بالنصر ودخلوا صنعاء وقتلوا القرامطة وهزموهم بإذن الله شر هزيمة.

لكن القرامطة لم يذهبوا بعيداً بل جعلوا يحشدوا أتباعهم في حراز وألهان وبلدان أخرى..

فأرسل علي بن محمد يطلب من الإمام الهادي (ع) المدد .. فخرج إليهم محمد بن الهادي (ع) في جموع من خولان وهمدان فطهر البلاد المجاورة لصنعاء وأخرج القرامطة من حراز ومقراء وألهان.. ثم تتبع دعاة القرامطة فقتل منهم جماعة وألّف بين العشائر وأصلح بعض ما أفسده القرامطة.

ولما علم ابن كيالة بذلك خرج من تهامة يقصد صنعاء.

فلما بلغ محمد بن الهادي (ع) قدومه كتب إلى الإمام الهادي (ع) في أمره .. فوصلت إليه رسل الإمام الهادي (ع) تأمره بالإنسحاب والعودة.

فخرج محمد بن الهادي (ع) ومعه علي بن محمد بن عبيد الله مريضاً قد ثارت عليه بعض الجروح التي أصابته بنجران .. فلما بلغ خيوان اشتدت علته وسرت الجروح فيه..

فأدرك أن الموت نازل به فطلب إلى محمد بن الهادي (ع) التوقف به في خيوان..

ولم تمض عليه ساعات حتى صعدت روحه إلى بارئها راضية مرضية .. ثم قبر في خيوان.. فسلام الله عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ...

وبعد أن أكمل الجيش مسيره إلى صعدة ونزلوا على الإمام الهادي (ع) بادرهم بالسؤال عن علي بن محمد فقُصّ عليه خبره .. فأنشأ يقول:

قبر بخيوان حوى ما جداً ... منتجب الآباء عباسي

قبر علي بن أبي جعفر ... من هاشم كالجبل الراسي

من يطعن الطعنه خوارة ... كأنها طعنة جساس

(٦)

بقي الإمام الهادي (ع) في داره يتابع أخبار البلاد ويدبر أمر الناس لا يرده عن ذلك ما به من آلام الجروح التي سرت في جسده.

ثم تداعت عليه العلل وثارت الجروح القديمة .. فلم يكن في جسمه موضع إصبع إلا وقد شرفها الله بضربة سيف أو طعنة رمح أو احتضان نبل ..

وبعد طول اشتياق وكثرة بلاء وسعي حثيث نحو لقاء الله أدرك الإمام الهادي (عليه السلام) أن الله قد أوشك أن يبلغه مناه .. ويختاره إلى جواره فجمع ولده وأخرج إليهم وصيته فكانت:

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين .. وصلى الله على سيدنا محمد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين .. شهادة من الله يشهد بها يحيى بن الحسين بن القاسم يشهد على ما شهد عليه الله سبحانه لنفسه .. يشهد أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز

الحكيم.

اللهم من عندك وإليك .. وفي قبضتك وقدرتك عبدك وابن عبديك.

هذا ما أوصى به يحيى بن الحسين: أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه .. وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .. أرسله لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين .. ويشهد أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أخو رسولك ووليك والقائم بحجتك بعد رسولك .. والداعي إلى طاعتك والمجاهد لمن عَنَد عن إجابتك وإتباع سنة نبيك صلى الله عليه وآله وسلم الباذل نفسه وماله لك .. الشاهر سيفه دون حقك .. وفي أمرك وأمام رسولك .. الصابر لك .. المصطبر في طاعتك ؛ في السراء والضراء والشدة والرخاء وأنه أولى الناس بك وبرسولك .. وأعظمهم عناء في أمرك وسبيلك .. ونتقرب إليك بولايته وبمودته وبولاية من تولاه .. وبمعاداة من عاداه .. ونشهد أنه أحق

خلقك بمقام رسولك صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأنه خليفته من بعده في عبادك اخترته لهم وافترضت طاعته من بعد رسولك عليهم ليهلك من هلك عن بينة .. ويحيى من حي عن بينة وأن الله لسميع عليم.

اللهم إني أشهدك يا رب وكفى بك شهيداً .. وأشهد حملة عرشك .. وأهل سماواتك وأرضك ومن ذرأت وبرأت .. وخلقت وفطرت .. وركبت وجعلت .. وصورت ودبرت .. بأنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك .. وأن محمداً عبدك ورسولك .. وأن الساعة آتية لا ريب فيها .. وأن الله يبعث من في القبور .. وأنك واحد أحد فرد صمد .. لم تلد ولم تولد .. ولم يكن لك كفؤاً أحد .. لا شبيه لك ولا نظير .. ولا ند ولا عديل .. ولا يشبهك شيء وليس كمثلك شيء .. وأنت السميع البصير .. لا تحيط بك الأقطار .. ولا تُجِنُّك البحار .. ولا تواري عنك الأستار .. ولا تحدق بك السماوات والأرضون .. ولا يتوهمك بتحديد المتوهمون .. ولا يستدل عليك المستدلون إلا بما دللت به على نفسك من أنك أنت سبحانك الواحد الجليل .. والخلق عليك دليل.

وأنك لا تقضي بالفساد .. ولا تجبر على العصيان العباد .. بريء من أفعالهم تقضي بالخير وتأمر به.. وتنهى عن الفجور والبغي وتعذب عليه .. صادق الوعد والوعيد .. الرحمن الرحيم بالعبيد .. أقول فيك ما ذكرت من العدل والتوحيد .. وتصديق الوعد والوعيد .. قولاً منى مع من يقول به .. وأكفيه من أبى القول له .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اللهم من شهد على مثل ما شهدت عليه فاكتب شهادته مع شاهدتي .. ومن أبى فاكتب شهادتي مكان شهادته واجعل لي به عهداً يوم ألقاك فرداً .. إنك لا تخلف الميعاد.

ثم يوصي يحيى بن الحسين من بعد ما شهد لله من شهادة الحق كل من أتصل به وعرفه أو لم يعرفه من والد وولد .. قريب وبعيد .. بتقوى الله وحده لا شريك لـه .. وبطاعته والاجتهاد له في السراء والضراء .. والخوف منه والمراقبة له .. فإنه يعلم السر وأخفى .. ويعلم خائنة الأعين وما تخفي

الصدور .. وبالأمر بالمعروف الأكبر .. والنهي عن التظالم و المنكر .. والإرصاد لأمر الله .. فمن علم أنه مستحق للقيام بأمر الله مستأهل له فيه الشروط التي تجب بها القيام والإمامة: من الدين .. والورع .. والعلم بما أحل الكتاب .. وما حرم من الأسباب .. والحلم .. والشجاعة .. والسخاء .. والرأفة بالرعية .. والرحمة لهم والتحنن عليهم والتفقد لأمورهم .. وترك الإستئثار عليهم .. وأداء ما جعل الله لهم إليهم .. وأخذ ما أمر الله بأخذه من أيديهم على حقه وصرفه في وجوهه .. وإقامة أحكامه وحدوده .. والثقة على نفسه على عبادة ربه .. فليقم لله بفرضه وليدع الناس إلى نفسه .. وجهاد أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. لاينيَ ولا يفتر .. ولا يكل ولا يقصر .. فإن ذلك فرض من الله عليه لا يسعه تركه .. ولا يجوز له رفضه .. واجب عليه في الخوف والأمن .. والرخاء والشدة والمحنة والبلاء .. ومن لم يثق بنفسه ولم يكن كاملاً في كل أمره فليتق الله ربه ولا يدخل في شيء من هذا .. فإنه ليس له ذلك .. وليرصد لأعداء الله

وليعد سلاحه وما قدر على إعداده .. ولينتظر أن يقوم لله حجة من أهل بيت نبيه من فيه هذه الشروط .. فينهض معه ويبذل نفسه وماله .. فإن ذلك أقرب ما يتقرب به إلى الرحمن .. ويطلب به الفرار من النيران .. ومن مات من المؤمنين منتظراً لذلك مات شهيداً مقرباً فائزاً عند الله مكرماً.

ثم يسأل يحيى بن الحسين ويطلب من والده وولده .. وولد ولده إلى يوم القيامة .. وأخوته وإخوانه .. وعمومته وبني أعمامه .. وكل أقربائه ومواليه وشيعته وأهل مودته .. وكل من أحب أن يبره ببر .. أو يتقرب إلى الله له بصلة في حياته وبعد وفاته .. أن يهبوا له هبة مبتوتة يقبلها منهم في حياته وبعد وفاته ما أمكنهم من بر أو هبة أو صلة.. من عتق رقاب مؤمنة عفيفة زكية .. مسلمة لا يعلم عليها إلا الخير ولا ترمى بشيء من الضير .. أو كفارات مما أمكنهم عن الأيمان .. أو صدقة بما أمكن من ثياب أو إطعام أو نقد .. أو سقي ماء في المواطن المحدودة .. ويسألهم أن لا يحقروا له شيئاً من الأشياء ما بين حبة إلى أكثر فإن الله يقبل اليسير .. ويعطي عليه الكثير ..

فمن أمكنه مما سأله يحيى بن الحسين شيء قل أو كثر فليقل عند إخراجه له: هذا ما استوهبنيه يحيى بن الحسين رحمة الله عليه، وقد وهبته له، وصرفته حيث أمرني به، وسألني أن أصرفه فيه من الوجوه التي يتقرب بها إلى الله عزّ وجلّ .. اللهم انفعه بذلك واعطه فيه أمنيته وبلغه به أمله في دار آخرته إنك عزيز حكيم.

ولا يختار ليحيى بن الحسين من أحب بره ممن سمى من والديه وولده وولد ولده إلى يوم القيامة إن بقى لـه عقب أو أنمى الله له نسلاً واخوة وإخوانه وأعمامه وبني أعمامه وجميع أقاربه ومواليه وشيعته وأهل مودته إلا أزكا ما يقدر عليه وأطيبه وأحله.

ويسأل يحيى بن الحسين من سماه وسأله البر لـه إن بلغه الله ظهور إمام عدل عادل فقام معه أحد ممن فرض الله عليه نصرته والقيام معه إن شاء الله تعالى .. أن يسأله الدعاء لـه بالرحمة والمغفرة والرضى والرضوان والتجاوز والإحسان.

ويسأل يحيى بن الحسين من حضر ذلك وبلغه ممن سأله من

الرجال أن يشركه في قيامه مع الإمام وجهاده منه وقيامه بين يديه وقعوده وحملاته بين يديه وإخافته للظالمين .. وإحسانه إلى المؤمنين.

ثم إن يحيى بن الحسين يسأل الله أن يحسن جزاء من فعل شيئاً مما سأله وبره بذلك ووصله .. ويسأل الله أن يصله ويعطيه على ذلك أفضل العطاء إنه قريب مجيب .. (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ما شاء الله .. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. وحسبنا الله ونعم والوكيل ونعم المولى ونعم النصير).

ثم صعدت روحه الشريفة إلى بارئها راضية مرضية يوم الأحد ودفن يوم الاثنين ٢٠ من ذي الحجة سنة ٢٩٨هـ ولّما ووري جسده الشريف في مسجده الشريف بصعدة انبعثت رائحة طيبة لتخلد ذكره وتنبئ للناس عن رضاء الله عن فعله.. ولم تزل تلك الرائحة تنبعث إلى يومنا هذا .. فرحمة الله عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا. ..

الفهرس

مقدمة---------- ٥
الباب الأول ---------- ٧
الفصل الأول ٧
الفصل الثاني ٣٢
الفصل الثالث ٤٨
الفصل الرابع ٦٤
الفصل الخامس ٧٨
الباب الثاني---------- ١٠٣
الفصل الأول ١٠٣
الفصل الثاني ١٢٦
الباب الثالث ---------- ١٥٦
الفصل الأول ١٥٦
الفصل الثاني ١٧٦